

## الفصل الأول

### الهجرة الغزية واستيلاء السلاجقة على خراسان

تركستان وسكانها • الوضع السياسي في  
خراسان وبلاد ما وراء النهر في القرن  
العاشر والنصف الأول من الحادي عشر •  
الأسرة السلجوقية • الاجتياح السلجوقي  
لخراسان

« وعاش الأمير سلجوق مائة سنة ، ورأى في منامه ذات ليلة أنه  
يبول ناراً يتلظى . شرارها في مشارق الأرض ومغاربها • فسأل  
المعبر ، فقال: سيولد من نسلك ملوك يملكون أقاصي الأرض » (١) .

« تعلق الإمام الأعظم أبو حنيفة الكوفي رضي الله عنه بحلقات  
الكعبة في حجته الأخيرة - ودعا الله قائلاً: إذا كان اجتهادي  
صحيحاً ومذهبي حقاً فأنصره ، فإلقد وضحت مسائل الشريعة  
الإسلامية من أجل وجهك ، فصاح هاتف من الكعبة قائلاً: حقاً  
قلت ، مازال مذهبك مادام السيف في يد الأتراك ، وحمداً لله تعالى  
أن قوى ظهر الإسلام به ، وما هم أصحاب أبي حنيفة هاندون  
يا عمون ، قريرو الأعين لأن السيف في يد الأتراك في بلاد العرب  
والعجم والروم والروس ، وقد رسخ سلطانهم في القلوب وهم  
سلاطين آل سلجوق ، رحم الله الماضين منهم وأبقى الباقيين ،  
فلطالما اختصروا العلماء من أصحاب أبي حنيفة بالعطف والرعاية  
بحيث استقرت محبتهم في منوب الناس جميعاً شيباً وشباباً » (٢)

« يظهر عز الملك... بثلاثة أشياء : حفظ الأطراف مع دفع العدو عن الحوزة ، وأكرام العلماء واعزازهم ، وحب أهل الفضل... وإن أجل النعم بعد نعمة الاسلام الصحة والأمن ، والأمن إنما يكون من سياسة السلطان ، فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة ، وأن يكون مع السياسة عادلا لأن السلطان خليفة الله ، ويجب أن تكون هيئته بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كان بعيدا » ( ٣ ) .

عندما يتفحص الباحث تاريخ بلاد الشام والجزيرة ، وذلك كجزء مما يعرف الآن باسم الشرق الأوسط ، يلاحظ المدى الذي تأثر به هذا التاريخ في العصور القديمة والوسطى - حسب المصطلحات السائدة - بتحركات الشعوب البدوية وهجراتها داخل أسية ، وفي الوقت نفسه يرى كيف نعمت بقاع هذين البلدين ، أو عانت ، أو تغيرت عقب وصول كل موجة جديدة من المهاجرين إليها ، ومن المعروف أن البداية الذين عرفتهم بقاع الشام والجزيرة كثر ، وجاءوا من اتجاهات وأصول متعددة .

ليس في النية هنا التصدي لدراسة كافة الموجات البدوية التي جاءت في مختلف العصور الى بلاد الشام والجزيرة ، إنما الغرض سينحصر بتبيان بعض ما حدث بعد قيام الفتوحات الاسلامية في القرن السابع للميلاد ، حيث نجد أن العرب والترك كانا أشهر الشعوب البدوية التي هاجرت الى هذين البلدين وأكثرها أهمية ، وكانا أيضا أكثرها تأثيرا في حياتهما من كافة الجوانب .

وعلى الرغم من تفاوت العرب والترك من حيث الأصول العرقية ، واللغة والطبائع ، والوطن الأم ، فإن كلا من هذين الشعبين قد ساهم في اقامة الحضارة الاسلامية وتطويرها مع نشر الاسلام والحفاظ عليه ، وليس من المغالاة القول في يومنا هذا : إنه إذا كان فضل نشر الاسلام وإقامة الخلافة الاسلامية يعود للعرب ، فإن كبير فضل حماية هذا الدين في اوقات المحن ، ثم التمكين من احياء السنة ، واخيرا تثبيت صبغة الدين الاسلامي الحالية يعود كله للترك .

إن الشطر الأول من هذا الكلام بديهي ومعروف بالنسبة للعرب وغيرهم لكن الشطر الثاني يحتاج - على الأقل بالنسبة لكثيرين من قراء العربية - الى توضيح وتبيان، كما يحتاج الى تقويم علمي وعلماني ، وهذا ما سأحاول صنعه وشرح بعض جوانبه في هذه الدراسة ، وأقول بعض جوانبه لأن هذه الدراسة هي مدخل لتاريخ الحروب الصليبية التي كان مسرحها الاساسي الشام والجزيرة، والشام والجزيرة لم تكونا تعدوان أكثر من دارين من ديار الاسلام التي حكمها الأتراك، ثم إنني لن أتعرض ، إلا بقدر ما تمليه الضرورة، لتاريخ اتصال الترك بالاسلام منذ البداية، بل سأركز الجهد على الفترة ما بعد القرن الرابع للهجرة-العاشر للميلاد، لأن في القرن الخامس- الحادي عشر كان أمر ظهور الغزاة-التركمان - وفيه قامت السلطنة السلجوقية •

إن هجرة التركمان الى خراسان والعراق والجزيرة والشام واسية الصغرى مع الاجتياح السلجوقي هو حدث في غاية الخطورة لأنه قد افتتح مرحلة جديدة متباينة عما سبقها ليس فقط في تاريخ الاسلام ودياره وإنما في تاريخ المسيحية والامبراطورية البيزنطية مع عالم العصور الوسطى، فمنذ هذا القرن بدأت اجزاء من العالم الاسلامي تخضع بصورة متوالية تحت الحكم التركماني السلجوقي حتى جاء وقت وجد فيه حكام أتراك الأصل في مناطق نائية عن موطنهم الأصلي كالجرائر والبنغال واليمن أحياناً، ولقد استمر هذا وعاش طويلاً وكان له أثاره حتى بات كثير من المسلمين يرون أن الحكم لا يصح ولا يمكن أن ينجح فيه إلا تركي (١) وهذا له ما يسوغه فالشام مثلاً حكم من قبل الترك منذ أواخر القرن الحادي عشر وحتى أوائل هذا القرن •

والتغيرات التي أحدثتها قدوم التركمان مع الاجتياح السلجوقي - كما سنرى - هي تغييرات هائلة تناولت جوانب الحياة في العالم الاسلامي، وصحيح أن الكثير من التغييرات التي

تمت كان له جذوره التي تعود الى ما قبل القرن الحادي عشر ، إلا أن التركمان بقيادة السلاجقة قد عجلوا في قيام التغيير ومكنوا من احداثه واتمامه بنجاح .

وبالنسبة للمسيحية والامبراطورية الرومانية الشرقية، لقد تمكن التركمان من تحقيق ما أخفق الفرس والعرب من قبل في تحقيقه ، الا وهو احتلال الاناضول ، ومن ثم التمهيد للقضاء على بيزنطة واحلال تركية محلها .

لم يكن التركمان أول ترك يتصلون بالعالم الاسلامي وبيزنطة، فمنذ قرون عديدة مضت قبل القرن الحادي عشر كان هناك ترك كثيرون يعيشون داخل الأراضي الشرقية للخلافة او على تخومها، ومعروف أن حركة الفتوح الاسلامية خاصة في العصر الاموي قد اصطدمت بالترك الذين وقفوا في وجه هذه الحركة وحالوا لزمان بينها وبين التقدم، والى أن تحول الترك الى الاسلام لم يكن له « دار حرب أشد شوكة من الترك » ( - 1 - ) .

ومعروف انه منذ القرن التاسع اعتمدت الخلافة العباسية على تجنيد العبيد الترك في جيوشها، وأنه قد ظهر من بين صفوف هؤلاء العبيد عدد كبير من الحكام والقادة، نجح بعضهم في التحكم بالخلافة، وبعضهم الآخر في إقامة دول مستقلة كما فعل آل طولون ثم الاخشيدي في مصر، والغزنويون في افغانستان اليوم الحالي، ولما كان هؤلاء العبيد قد جلبوا الى العالم الاسلامي وهم أطفال ، فإنه من المرجح أنهم قد كسبوا عادات وتقاليد المجتمع الذي ربوا فيه ونشأوا ، وأنهم قد نسوا أو تخلوا عن معظم - إن لم يكن عن كل - تقاليد وعادات مواطنهم الأصلية. وأهليهم، لذا لايمكننا أن نعددهم - حين أسسوا دولهم المستقلة، وحين تحكّموا ببغداد والخلفاء - ممثلين للعنصر التركي، وإنما ينبغي النظر اليهم من زاوية وضع الخلافة العباسية ومجتمعها ومشاكله ومشاكل قومياته وعناصره البشرية، ثم الدور الذي شغله الجند والقوى والجماعات العسكرية

في حياة هذه الخلافة، وهو دور قام بعد الهجرة النبوية حين أذن بالقتال، وأمر بالاعتماد على الجهاد كاحدى وسائل نشر الاسلام، ولقد بانّت بدايات النتائج السلبية للاعتماد على الجند والقتال، منذ زمن الخليفة الراشدي الثالث، وربما قبل ذلك، وتطورت وتعمدت مع تطور الدولة الاسلامية وتعمد نظامها الامبراطوري، وربما مسازالت مستمرة حتى يومنا الحالي \*

ولعله ليس من الغريب أن سنجد عند حديثنا عن الهجرة التركمانية مع الاجتياح السلجوقي أن العناصر العسكرية التركية الاصل لدول الخلافة العباسية، وخاصة الدولة الغزنوية هي التي وقفت في وجه هذه الهجرة، وتصدت لهذا الاجتياح، ثم عانت وخيم العواقب من آثاره \* وينطبق هذا الى حد ما على الامبراطورية البيزنطية، لأنها عرفت الترك قبل القرن الحادي عشر، وكان لها علاقاتها معهم، فاستخدمت الكثيرين منهم كمرتزقة في جيوشها، لهذا كثيرا ماحدث، أثناء القرن الحادي عشر وبعده، أن كان بعض قادة القوات البيزنطية مع الكثير من العساكر التي كلفت وعملت في سبيل صد التركمان ومنعهم من التغلغل في اسية الصغرى والحيلولة بينهم وبين احتلال الأناضول كانت من أصل تركي \*

لقد أدرك الأوائل هذا الأمر وميزوا بين تركمان القرن الحادي عشر واتراك القرون التي سبقتة، فعندما عبر في عام ١٠٧١ م السلطان السلجوقي ألب أرسلان الفرات في طريقه إلى الشام قال له أحد مرافقيه (١): «يا مولانا أحمد الله تعالى على ما أنعم به عليك، فقال: وما هذه النعمة؟ فقال: هذا النهر لم يقطعه قط تركي إلا مملوك وأنتم اليوم قد قطعتموه ملوك» .:

إنه لمن الضروري قبل الشروع في الحديث عن وصول الغز التركمان الى الجزيرة والشام، ثم عن الاجتياح السلجوقي والدويلات التي قامت بعد هذا الاجتياح، أن نذكر باختصار بعض ما يتعلق بأصل الغز وعاداتهم قبل تبنيهم للاسلام ودخولهم مهاجرين

غزاة لدياره، ثم نبين كيف تم وصولهم الى بغداد وكيف اجتاحتها الشام والجزيرة •

قبل أن يتحول الغز الى الاسلام كانوا أعدى أعداء هذا الدين، ولكن ما أن تبناه حتى أصبحوا حماة المخلصين، لذلك إن من العلامات المميزة لتبني التركمان للاسلام كمال هذا التبني، حيث أسلموا أنفسهم كلياً للاسلام، فتنازلوا عن ماضيهم، وعاشوا كلياً مع الدين الجديد، ومرد هذا ربما بسبب أنهم أخذوا الاسلام وتبنوه في أرض وأجواء الصراع بين الاسلام والكفر على الحدود الشرقية لبلدان الخلافة العباسية، وربما أيضاً بسبب أنهم وجدوا أنفسهم منذ لحظة اعتناقهم للدين الاسلامي ينخرطون بجهاد مرير ضد بني جلدتهم من كفار الترك، وهكذا نسي التركمان ماضيهم وأغرقوا شخصيتهم القومية في الاسلام، الأمر الذي لم يفعله العرب ولا الفرس. فليس لدى التركمان ذكريات «جاهلية تركية تعدل بأي حال أو تشابه بأي محتوى الذكريات المجيدة لوثنيات الجزيرة العربية» أو مفاخر الامجاد التليدة الماضية للفرس وماعدا بعض المقطوعات الشعرية الشعبية، وبعض قصص للأنساب ذات مسحة أسطورية» فان حضارة التركمان وثقافتهم وآدابهم وديانتهم قبل الاسلام قد جبتها الاسلام جميعاً فذست، وليس من الغلو والمبالغة القول بأنه لم يوجد بين الأمم التي اعتنقت الاسلام من عدل التركمان في ايمانهم المخلص به والذي لم يشبهه ريب، لهذا ليس عجباً كما سنرى أن استطاع التركمان الاسراع في إحياء قوة الاسلام السني، وإقامة سيطرته ونشرها الى أجزاء بعيدة، ولقد صنعوا هذا ونجحوا به في الوقت الذي هدد الاسلام فيه مع الحضارة العربية الاسلامية بالزوال كلياً من الشام والجزيرة ومصر، وكان التهديد داخلياً نجم عن نشاط بعض الفرق غير السنية، وخارجياً نجم عن مجيء الصليبيين الذين قدموا من اوربا الغربية الكاثوليكية، ومفيد هنا أن ننبه إلى أن النجاحات التي حققها التركمان كانت باهظة التكاليف من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والسياسية وحتى الدينية •

انهى في عام ٤٦٦هـ - ١٠٧٣ م محمود بن الحسين الكاشغري تأليف اول معجم عربي تركي سماه ديوان لغات الترك، وحينما كان الكاشغري يصنف كتابه هذا كانت الدولة السلجوقية تحكم من قبل السلطان الب أرسلان، ثاني سلاطنة السلاجقة، ومن اكثرهم شهرة وعظمة، وقبيل ذلك عندما كان الب أرسلان مايزال اميرا يافعا صنف له كتاب اسمه ملك نامه تحدث به صاحبه عن اخبار التركمان والسلاجقة وذكر « انه استفاد انسابهم واحسابهم من الأمير اينانج بك ، إذ كان أسن القوم وأعرفهم بأدسابهم واحسابهم » (٧) .

ويقدم هذا الكتاب بعض المعلومات شبه الاسطورية عن التركمان قبل تبنيهم للاسلام من ذلك ما يتعلق ببعض العقائد والعادات، فمن العقائد على سبيل المثال أن « الترك تزعم أن أرواح الموتى تجتمع في كل سنة ليلا فتدخل الأمصار التي كانت فيها حياة أجرامها وتزور أهاليها، فمن صادف ذلك الدوي ليلا مات »، «، والترك تزعم أن الجمعين إذا تلاحما، فقبل ذلك الجن الذي يسكن ولاية هذين الجمعين يتحاربان تعصبا لصاحب ولايتهما من الادمس فمن ظفر منهما يكون الظفر لصاحب ولايته غدا، ومن انهزم منهما ليلا تكون الدبرة على الملك الذي يسكن هذا الحزب من الجن في ولايته، وجيوش الترك تتستر في ليلة الميعاد، وتدخل الخيام تدوقيا عن وقع نبال الجن » (٨) .

ومن بعض الأخبار الأخرى يمكن تلمس آثار عقائد طوطمية وشامانية:

« ذلك أن الترك أخذت أسماء اثني عشر صنفا من الحيوان وسمت به اثنتي عشرة سنة »، «، والترك تزعم في كل سنة منها حكمه ويتفاءلون بها، فتقول: إذا كانت سنة ( اوديلي اي سنة البقر تكثر فيها الحروب لما أن في البقر نطاحا ، وإذا دخلت سنة الدجاج يكثر فيها الطعام ولكن يقع بين الناس التشويب...، وإذا دخلت سنة التمساح يكون الأمطار والخصب لأن مسكنه الماء، وإذا دخلت سنة الخنزير يكثر فيها البرد والتلج والفتن... » ولقد كانت غالبية

اسماء رجالات التركمان التي وصلتنا هي اسماء حيوانات من جوارح الطير وغيرها من ذلك : جفري أي الصقر، وطغريل وهو طائر أعلى منزلة من الصقر ، وارسلان أي اسد . . . . .

ويبدو أن الغز كانوا في القرن العاشر شامانيين وهذا يمكن استخلاصه من كتابات الجغرافيين والرحالة العرب ومن أخبار بعض المؤرخين ( ١٠٩ ) ولعل في طبيعة التطور الذي أصاب الصوفية الإسلامية بعد قيام الامبراطورية السلجوقية دليل على أن هذه الشامانية لم تزل باعتراف الغز للإسلام بل جاءت معهم وقامت بتأثيرها ، فمن المعروف أن الشامان هو كاهن أو رجل دين، وهو منجم وطبيب وساحر وله القدرة على القيام ببعض الخوارق ولا تزول هذه القدرة بزوال الحياة بل تنتقل معه إلى القبر، ومعروف أن الصوفي أصبح بعد القرن الحادي عشر ليس فقط رجل دين إنما يفهم السحر ويمارسه وينبئ بالمستقبل ، ويشفي من الأمراض، وله القدرة على فعل الخوارق - الكرامات - وتستمر هذه القدرة حتى بعيد الوفاة ( ١١٠ ) .

وأخيرا يمكن من الكاشغري تحصيل بعض المعرفة فيما يتعلق بعادات الصيد عند الترك، وأمور القتال لديهم مع إيلاء استخدام القوس أهمية خاصة ، ثم ما يتعلق بالخمير وطرق تحضيره الخاصة ، كما أن هناك بعض الأساطير ذات الصبغة الاخبارية العالمية مثل تلك التي تتعلق « بالاسكندر ذي القرنين » وغير ذلك ( ١١١ ) .

إن الموطن الأصلي للشعوب التركية هو سهوب ما وراء النهر التي هي الآن مناطق تابعة إما للاتحاد السوفياتي سابقا أو للصين الشعبية ، ولقد عرف الجغرافيون العرب هذا الموطن باسم تركستان واعتبروا تركستان جزءا من منطقة بلاد ما وراء النهر، وطبعاً عذوا بالنهر نهر جيحون الذي أصبح يعرف منذ العصر المغولي باسم ( أموداريا ) ، ويعرف الجغرافيين العرب شملت منطقة ما وراء النهر جميع الأصقاع الواقعة بين جيحون والصين ، وقد قطنت من قبل البداية الأتراك والمغول ( ١١٢ ) .

لقد كان جيحون في كثير من العصور أكثر من حد جغرافي ، فهو بالنسبة للفردوسي صاحب الشاهنامه كان حدا تقليديا متفقا عليه بين إيران وتوران ، وكما أن هناك تمايزا وعداوة أصيلة بين الماء والنار ، كذلك هي العداوة والتمايز بين الإيرانيين والتورانيين ، وحديث ووقائع هذه العداوة هو الموضوع المسيطر على الشاهنامه ( ١٣ ) .

ولكن على الرغم مما قاله الفردوسي ، ومن أن دول إيران قد قامت خلال عصورها التاريخية بالدفاع عن حدودها الشمالية الشرقية ضد غزوات البدو سكان السهوب فإن التمايز بين الأيرانيين والتورانيين ليس ، ولم يكن قط بهذه الحدة نفسها فلقد عرف هذان الشعبان بعضهما بعضا منذ زمن طويل ، وأقاما علاقات متعددة الجوانب ومتنوعة الوجوه بينهما ، وهي بلا ريب لم تتسم دائما بالصراع والروح القتالية ، ولقد كان هناك دائما ترك يقطنون إيران حيث إما هاجروا إليها أو جلبوا أو خلفوا بعد كل غزوة قام بها بداء السهوب .

لقد ذكرنا أن معظم سكان السهوب الواقعة في أعالي جيحون وورائه كانوا من أصل تركي أو مغولي ، ولقد قامت في بلاد ماوراء النهر مدن كثيرة ذات نظام يشبه أنظمة دول المدينة ، كما قامت فيه عدة امبراطوريات ، وكان من السهل دائما على شعوب ماوراء النهر التسلسل والتغلغل في السهول الإيرانية أو الهندية أو الهجرة إليها ، ولقد كان في أوائل العصور الإسلامية هناك عناصر تركية تسكن ما نعتبره الآن شرقي أفغانستان مع قبائل غزية وخرجوية تجوب الهضبة الواقعة بين كابل وغزني ، وهكذا كان سكان التخوم الشرقية لخراسان دائما ممزوجين بالأتراك ، ونجد صدى هذا عند الجاحظ في قوله :

« إن الخراساني والتركي أخوان ، وإن الحيز واحد ، وإن حكم ذلك الشرق ، والقضية على ذلك الصقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غير

متفاوت ، وإن الأعراق في الأصل إن لم تكن راسخة فقد كانت متنسفة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لم تكن متساوية فإنها متناسبة ، وكلهم خراساني في الجملة ، وإن تميزوا ببعض الخصائص ، وافترقوا ببعض الوجوه ... وإن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلي والزنجي والحبشي ، فضلا عما هو أبعد جوهرًا وأشد خلافاً ، بل كاختلاف ما بين المكّي والمدني والبدوي والحضري والسهلي والجبلي ، وكالاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ... (١٤) .

ولقد كان لمراكز الحضارة والحياة المستقرة في بلاد ماوراء النهر صلات وثيقة مع البداية الأتراك سكان السهوب ليس فقط جغرافيا وإنما اقتصاديا وحضاريا وسياسيا ، وعند قيام الفتح الإسلامي كانت بلاد ماوراء النهر ممزقة سياسيا ، وكانت المدن ومراكز الاستقرار فيها تحكم من قبل الدهاقين أو التجار ، ولقد قاومت هذه العناصر الحاكمة دائما - بسبب مصالحها - أي تدخل خارجي مباشر وأية محاولة لتبديل الأوضاع السائدة ، واهتمت بتأمين سلامة طرق القوافل واستمرار الحركة التجارية وتدفق البضائع والأرباح ، وحققت هذا باقامة علاقات طيبة مع سكان السهوب البداية وعندما كان يقوم أي تهديد أو عدوان خارجي ، أو عندما كانت تحدث أية مشاكل داخلية كان هؤلاء الحكام من التجار والدهاقين يستصرخون البداية الأتراك ويعتمدون على مساعدتهم ، وبإمكاننا أن نسوق مثلا يبرهن على هذا كله ما ذكره النرشخي صاحب تاريخ بخارى ، أثناء تكلمه عن قيام هذه المدينة وسكناها وتطورها حيث يقول : « واجتمع الناس من كل صوب ، وازدهر ذلك المكان وأقبل الناس من ناحية التركستان ، وكان بهذه الولاية كثير من الماء والشجر والصيد ، فأعجب هؤلاء الناس بها وأقاموا فيها ، وكانوا أول الأمر يعيشون ويقيمون في الخيام والسرادات فتجمعوا وتكاثروا على مر العصور وبنوا العمائر واختاروا من بينهم واحدا

اسمه « أبروي » نصبوه اميرا عليهم ... وبعد مدة كبر « أبروي » وسلك طريق الظلم في هذه الولاية ، فلم يستطع الناس الصبر طويلا ، وفر الدهاقين والأغنياء منها الى التركستان - أي الشرق - حيث بنوا شبه مدينة سموها « حموكت » لأن دهقاننا عظيما اسمه « حموك » كان رئيس تلك الطائفة التي ذهبت الى هناك ... ثم أرسل الناس الذين بقوا في بخارى رسولا الى عظمائهم طالبين النجدة من جور « أبروي » فتوجه هؤلاء العظماء والفلاحون ( الدهاقين ) الى ملك الترك ... واستنجدوا به فأرسل ... ابنه ... مع جيش عظيم ، فلما وصل الى بخارى قبض على « أبروي » ... وقيده ثم أمر فملأوا جوالا بالزنابير وأدخلوا فيه « أبروي » حتى مات ... وأوفد رسولا الى « حموكت » لاعادة هؤلاء الذين هربوا من بخارى مع نسائهم وأطفالهم ، ثم صدر فرمان باعتبار كل عائد من حموكت من جملة الخواص ، لأن كل من كان غنيا ودهقاننا كبيرا كان قد فر ، وبقي المعدمون والفقراء « ( ١٥ ) .

لقد كان هناك علاقات تجارية كبيرة بين العالم الاسلامي والترك قبل تحولهم الى الاسلام وبعده ، ويعود الى التجار فضل نقل بعض صور الحضارة الاسلامية مع الدين الاسلامي الى اوساط البداة سكان السهوب . إنما كما يبدو - يعود فضل نشر الاسلام بين سكان السهوب الى جهود عدد من رجال الدين من المتصوفة بشكل خاص وليس الى جهود رسمية موجهة ( ١٦ ) .

ونتيجة لوجود العلاقات الحربية والسلمية والاقتصادية مع الترك فقد توفر لدى المسلمين خاصة منذ القرن العاشر بعض المعلومات عن قبائل وجماعات الترك الذين كانوا عبارة عن « عدة اجناس وعدة ممالك ... ولكل جنس مملكة منفردة ، ويحارب بعضهم بعضا ، وليس لها منازل ولا حصون وإنما ينزلون القباب التركية المضلعة ، ومساميرها سيور من جلود الدواب والبقر وأغشيتها لبود ، وهم احنق قوم بعمل اللبود ، لأنها لباسهم ، وليس بتركستان زرع إلا الدخن ، وإنما غذاؤهم البان الحجور ، ويأكلون لحومهم وأكثر

ملياً يكون لحوم الصيد، والحديد عندهم قليل، وهم يعملون سهامهم من عظام» (١٧). وأهم المجموعات التركية التي عرفها العرب دعوها باسم التغزغز أو الأغز وبشكل عام باسم الغز، فهم عرب الترك... وهم رماة الحدق (١٨) ويبدو أن الغز كانوا في القرن العاشر متحدين سياسياً لذلك كانوا أقل شأنًا من الناحية السياسية من غيرهم من المجموعات التركية .



انه لضروري قبل الاسترسال في الحديث عن الغز ان نبين بشكل موجز الوضع السياسي في منطقة خراسان وبلاد ماوراء النهر في القرن العاشر وبدايات القرن الحادي عشر .

عندما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد قامت في كثير من المقاطعات دول متفاوتة من حيث القوة والحجم والعظمة ، وإنما كلها دان اسمياً بالطاعة لخليفة بغداد العباسي، وأهم الدول التي قامت في المشرق في خراسان وبلاد ماوراء النهر هي : الدولة الطاهرية (٢٠٥-٥٩ هـ / ٨٢١-٧٣ م )؛ والدولة الصفارية ( حوالي ٢٥٣ - ٢٩٨ هـ / ٨٦٧ - ٩١١ م )؛ والدولة السامانية ( ٢٠٤ - ٣٩٥ هـ / ٨١٩ - ١٠٠٥ م )؛ والدولة الخوارزمية ( ٣٠٥ - ٤٠٧ هـ / ٩٩٥ - ١٠١٧ م )؛ والدولة القراخانية ( ٣٨٢ - ٦٠٧ هـ / ٩٩٢ - ١٢١١ م )؛ والدولة الغزنوية ( ٣٦٦ - ٥٨٢ هـ / ٩٧٧ - ١١٨٦ م ) .

والذي يعنينا هنا مباشرة هو الحديث عن الدولة السامانية ثم الغزنوية والقراخانية، دون سواهم . لقد كان سامان خداه جد الأسرة السامانية دهقاناً من بلخ، اعتنق الإسلام في مرو- بعد أن فر إليها- على يد أسد بن عبد الله القسري والي خراسان المتوفى في بلخ سنة ١٢٠ هـ - ٧٣٧ م، وقد أكرم أسد سامان خداه « وخمائه وقهر

اعداءه واعاد إليه بلخ « ولما رزق سامان خداه بغلام اسماه اسدا  
 لمحبته إياه » ولقد خدم اولاد الأربعة الخليفة المأمون العباسي  
 الذي كافأهم بأن عين نوحا واليا على سمرقند وأحمد على فرغانة  
 ويحيى على الشاش والياس على هراة، وبهذا وطد السامانيون  
 أنفسهم وحصلوا على مكانة طيبة في منطقة ماوراء النهر، وفي سنة  
 ٢٦٣ هـ / ٨٧٥ م قام الخليفة المعتمد بتعيين نصر بن أحمد واليا  
 على كل بلاد ماوراء النهر، وبهذا التعيين قامت الدولة السامانية  
 فعلا، وغدت منطقة ماوراء النهر الغنية قلبا لها، ولقد أخذ  
 السامانيون على عاتقهم أمر حماية الأراضي الاسلامية من غزوات  
 بداء السهوب الاتراك، وتأمين استمرار التجارة وتدفق البضائع،  
 ونجحوا في تحقيق ذلك بواسطة الدفاع : باقامة الرباطات في الثغور،  
 وبواسطة الهجوم : بالقيام بحملات على مناطق الاتراك داخل  
 السهوب ، وبذلك اضعفوا تجمعات الاتراك ومدوا نفوذهم وهيبتهم  
 الى داخل السهوب ، وهكذا امن السامانيون الاستقرار السياسي  
 والاقتصادي لبلادهم مما مكنهم بعد ذلك من الالتفات نحو خراسان،  
 ومنذ القرن التاسع تدفق من اراضي السامانيين سيل من العبيد  
 الاتراك على بغداد وغيرها من مراكز الاسلام وعواصم دياره ، ولقد  
 استخدم غالبية هؤلاء العبيد في جيوش خلفاء بغداد وحكام الدويلات.

ولقد كانت مدينة بخارى مركز الدولة السامانية، وفي بلاط  
 السامانيين في بخارى عاشت الثقافة العربية الاسلامية مزدهرة ،  
 ولكن الأهم من هذا هو أن هذا البلاط شهد بعث اللغة الفارسية مع  
 الثقافة الايرانية وأسهم في نموها ، ففي زمن السامانيين بدأ  
 الفردوسي بنظم الشاهنامه ملحمة فارس القومية .

في عام ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م ربح إسماعيل بن أحمد ثقة سلطات  
 بغداد والخليفة وذلك بعد أن هزم عمرو بن الليث الصفار، لذلك عين  
 واليا على خراسان بالاضافة الى بلاد ماوراء النهر، وبهذا غدا  
 السامانيون قوة هائلة تحكم اراضي شاسعة تمتد من جهة الى  
 الأراضي والممتلكات البويهية في العراق ومن جهة أخرى الى اطراف

افغانستان المتصلة بحدود الهند، ولما كان السامانيون سنة وكان البويهيون شيعة، وبسبب هذا الخلاف في العقيدة مع تضارب المصالح والمطامح بالتوسع فقد كان لابد من أن تصطدم قوى الطرفين ، وهذا امر لايعنينا الحديث الآن عنه هنا .

وفي منتصف القرن العاشر بدأت علامات الضعف والتفتت تظهر على الامبراطورية السامانية . ولقد بدا هذا في عدد من ثورات وانشقاقات البلاط التي قادها بعض القادة العسكريين . لهذا لم يكن صعبا ان انفصلت خراسان عن سلطنة بخارى ، ثم لم يكن صعبا على الغزنويين والقراخانيين الاجهاز على الدولة السامانية ووراثةها: القراخانيون فيما وراء النهر ، والغزنويون في المناطق الاخرى(١١٩).



لقد احتلت بخارى عاصمة الدولة السامانية وطرد منها آخر امير ساماني من قبل بغراخان هارون (أو حسن) الذي كان يعرف بلقب إيلك خان، ولقد عرفت أسرة هارون باسم الايلك خانية ، ولكن بما ان الكثير من افراد هذه الأسرة استعملوا كلمة قره - التي تعني اسود أو شديد القوة - رديفا لأسمائهم فقد أطلق المستشرقون اسم « القراخانية » على هذه الأسرة ، وهكذا فان اسم « القراخانية » إذن هو اسم محدث بديل للايلك خانية .

لقد ادعى افراد هذه الأسرة انهم من نسل افراسياب البطل التركي الاسطوري للشاهنامة، ولكن يبدو انهم كانوا في الواقع عبارة عن البيت الحاكم لاحدى المجموعات التركية المعروفة باسم القرلق، وهي مجموعة قد قامت بدور هام ومؤثر في التاريخ القديم للترك سكان السهوب، ولقد اعتنق القراخانية الاسلام كما يبدو في منتصف القرن العاشر، وتبنوا أسماء - وحتى القبايا - اسلامية ، ويظهر ان بغراخان جد محتل بخارى هو أول من اعتنق الاسلام وتسمى باسم عبد الكريم، ولقد اقام القراخانية بعد قضائهم على

السلطة السامانية امبراطورية واسعة سيطرت على اجزاء واسعة من بلاد ماوراء النهر واقامت هذه الدولة علاقات خاصة بالامبراطورية الغزنوية ولقد شكل نهر جيحون الحد الفاصل بين هاتين الامبراطوريتين .

ولقد كانت الامبراطورية القراخانية عبارة عن اتحاد قبلي ولم تكن قط دولة مركزية متحدة ، فعلى الرغم من انه كان على راسها حاكم حمل لقب خان فلقد وجد احيانا عدد من افراد الاسرة الحاكمة ادعوا لانفسهم اللقب نفسه او القابا من الدرجة الثانية، وبسبب انه وجد في الوقت نفسه أكثر من حاكم من الاسرة نفسها حمل الاسم نفسه واللقب ، ثم بسبب قيام الخلافات والحروب الداخلية بين امراء الامبراطورية فإنه من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، الوصول الى صورة واضحة يقينية مفصلة حول سلسلة حكام القراخانية ( ٢٠ )



لقد ذكرنا بأن الدولة الغزنوية كانت شريكة الدولة القراخانية في الاستيلاء على ميراث الدولة السامانية، وتنسب هذه الدولة الى مدينة غزنة- احدى مدن افغانستان الحالية وتقع الى جنوب غربي كابل-، ومؤسس هذه الدولة هو سبكتكين الذي كان عبدا تركيا من ضباط الجيش الساماني ، ولقد كان استلامه لحكم غزنة في سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م .

في الحقيقة إن قصة قيام الدولة الغزنوية تبدأ قبل هذا التاريخ بعدة سنوات ، ففي عام ٣٥٠ / ٩٦١ توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح ، « ربما دفنوه ثار العسكر وتمردوا وطمع كل شخص في الملك وظهرت الفتن » ( ٢١ ) وكان الاسفهلار ( اي القائد ) البتكين في نيسابور حين بلغه خبر وفاة الأمير . . . . . فقصده الحضرة للقبض على الأمير « الساماني الجديد ومن ثم إحلال نفسه محل الأمير عبد الملك على عرش السامانيين ، واخفق البتكين ، واجبر على الفرار فذهب الى غزنة واستقر بها ، وكان بصحبته غلمانه وقواته الخاصة ، وبعد فترة تصالح البتكين مع الأمير

الساماني الجديد لبخاري وهو منصور بن نصر ، ونظرا لقرب الاراضي الافغانستانية من اراضي الهند غير المسلمة ، فقد شغل ضباط البتكين وجنده انفسهم بالفارة على هذه الاراضي ، وكان القصد الاساسي من هذه الفارات هو كسب المغانم ولم يكن قط هدفها نشر الاسلام ، مع ان الكثيرين ممن كان يقوم بها لقب نفسه بلقب غازي ، ولقد ظل البتكين وضباطه تابعين اسميا للدولة السامانية ، وبعد وفاته خلفه احد ضباطه واسمه سبكتكين .

وبعدما استلم سبكتكين زعامة الجيش لم تنقطع اعمال الفارة على السهول الهندية ، واستمر بالاعتراف بالسيادة السامانية ، ولكن عقب وفاة سبكتكين في سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، وعندما اصبح ابنه محمودا صاحب السلطة في غزنة ، غدت الدولة الغزنوية دولة مستقلة عن السامانية ، ونظم محمود اعمال الفارة على الاراضي الهندية وحولها إلى اعمال توسع وفتوح تحت عنوان الجهاد ، وبذلك نال محمود لقب غازي عن جدارة ، واصبح من أكثر شخصيات عصره شهرة ، فلقبته الخلافة العباسية بلقب يمين الدولة .

ولقد استطاع محمود توسيع رقعة دولته ، فأوصل حدودها الشمالية الى جيحون وبعد ذلك تجاوزه فقام بضم واحة خوارزم الى امبراطوريته وحقق الاتفاق مع الدولة القراخانية ، ثم التفت نحو خراسان فأخذها ، وبات يتطلع نحو بغداد ونحو القضاء على الاسرة البويهية الشيعية فيها ، وأخذ مكانها في التحكم بخلفاء بغداد ، ذلك لأن محمود كان سنيا شافعيًا متعصبا .

وعندما مات محمود في سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م كانت امبراطوريته من أضخم امبراطوريات عصره ومن أعظم مآقام في التاريخ الاسلامي ، وكان جيشه وقواته الحربية على غاية من القوة والعظمة وجودة التسليح ، وفي زمن محمود وبسبب طبعه وشغفه بالابنية تطورت التقاليد الفارسية الأوتوقراطية في الحكم مع الثقافة الايرانية .

ولقد واجه محمود في اواخر حياته بداية مشكلة التركمان بقيادة السلاجقة فاستطاع ان يتدارك تفجيرها ، وتمكن من ان يؤجل هذا التفجير ، وذلك بما اوتئيه من حزم وبصيرة ، ولكن لما كان ابنه وخليفته مسعود لم يكن يتمتع بصفات والده ، فقد أخفق في حل مشكلة التركمان عندهما واجهها ، ولقد استطاع التركمان كما سنرى ان يقهروا مسعودا ويستخلصوا منه خراسان ، ولكن هزيمة الغزنويين لم تعن ابدا نهاية الدولة الغزنوية ، بل استمرت هذه الدولة تحكم شرقي افغانستان وشمالى الهند واستمر هذا الحال حتى قيام الدولة الغورية التي استطاعت تصفية الغزنويين والقضاء على دولتهم في سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م (٢٢) .

لقد احتاجت الامبراطورية الضخمة التي اسسها محمود مع قواته العسكرية الكبيرة وبلاطه الضخم الى تكاليف باهظة ومبالغ من المال هائلة ، وما كانت المبالغ التي كانت تحصل من الغارات على الهند لتكفي سد أكثر من جزء من النفقات ، لهذا فرض الغزنويون ضرائب ثقيلة على خراسان ، وحصلوها دون تهاون وبأعنف الوسائل ، ولقد افقرت هذه السياسة المالية خراسان وجعلت الحكم الغزنوي غير محبوب على كافة المستويات ، كما ان هذه السياسة سببت تدهورا في اقتصاد خراسان وفقرا عاما ، مما ادى الى هجرة بعض التجار والدهاقين من خراسان الى بلاد ماوراء النهر حيث دولة القراخانية ولاشك ان هذه الحالة كانت من اسباب نجاح السلاجقة - فيما بعد - في انتزاع خراسان لانفسهم ، ورغم سوء الاحوال الاقتصادية وثقل الضرائب فقد كانت غالبية عامة الخراسانيين ساكتة عن الحكم الغزنوي او راضية عنه ، لقوة هذا الحكم ولاستطاعته تأمين الحماية الخارجية مع الأمن الداخلى ، ولكن ما ان مات محمود حتى بدا بأن خليفته مسعود لا يستطيع ، ولن يستطيع ان يؤمن هذه الأمور ، لذلك تطورت الأمور بسرعة ولغير صالح الغزنويين .



لم يكن جديدا بالنسبة لخراسان ان تتعرض لهجرات وغارات البدو الترك من سكان السهوب، والذي كان يحدث عادة إما ان تصد الغارات، أو ان المغيرين يحدث ان تمتصهم بعد فترة الحضارة والحياة في خراسان، لذلك لم يول الغزنويون في البداية أهمية كبيرة لبعض جموع الغز عندما أخذوا يعبرون نهر جيحون ويدخلون خراسان مهاجرين أو مغيرين(٢٣) علما بأن نشاط الغز على اطراف جيحون اقدم من الدولة الغزنوية.

يبدو أن الغزوا كانوا حتى القرن الثامن - عندما أصبح لهم نوع من الزعامة الخاصة - عبارة عن قبائل تابعة للإمبراطورية الخزرية وفي نهاية القرن الثامن قام هؤلاء الغز ، وقد أصبح لهم زعامتهم الخاصة ، فتحركوا غربا عبر سهوب سيبيريا نحو بحر الأرال وإلى الفولغا وجنوبي روسيا ، وأغاروا في عهد الخليفة المأمون على أروسنة ، وهكذا وصلت أخبارهم إلى أسماع العلماء والكتاب المسلمين فأخذوا بالاهتمام بذكرهم، ومنذ ذلك الوقت أخذ الغز يتحركون إلى قرب الأراضي الإسلامية وباتجاهها، وعندما قام الرحالة العربي ابن فضلان في ٣٠٩ - ٣١٠ هـ ٩٢١ - ٩٢٢ م برحلته نحو الفولغا قابل ورأى جماعات من الغز ، ولقد وصف ابن فضلان حالة الفقر والتعاسة التي كان يعاني منها هؤلاء القوم كما ذكر بأن زعيمهم كان يحمل لقب يبغو في حين أن القائد العسكري عندهم كان يعرف بسباشي - أي صاحب الجيش - وكان هناك قائد أدنى مرتبة منه دعي باسم ينال (٢٤) .

إن حمل زعيم الغز للقب يبغو له دلالاته لأن يبغو أو « يبغو لقب من كان بعد الخاقان بدرجتين » ، و« الخان هو الملك الأعظم منهم - الترك ... وهو الخاقان » (٢٥) .

وهذا يعني ليس فقط أن الغز لم يتطلعوا آنذاك نحو تشكيل إمبراطورية ، بل لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة من التطور

السياسي والحضاري تساعد على ذلك. ولقد كانوا في القرن الثامن مسؤولين من تسع قبائل (٢٦) وكان لكل قبيلة أمير أو مقدم – بك – دعاه المسلمون « دهقان » (٢٧). ويصف صاحب كتاب حدود العالم وهو جغرافي فارسي مجهول من القرن العاشر ، بلاد الغز بقوله : « يقع الى الشرق منها بلاد الصين والى جنوبها تقع أجزاء من التبت ... وهذه البلاد هي أوسع دار في موطن الترك ، ولقد كان الغز أكثر الأقوام التركية عددا ، ومنهم كان في الأيام الخالية ملوك جميع تركستان ، إنهم رجال حرب ، في حوزتهم الكثير من السلاح ، وهم يرحلون في الشتاء والصيف من مكان الى آخر طلبا للمرعى وحسب الطقس الملائم » (٢٨).

ودعا العرب الغز أحيانا باسم التركمان ، ونلاحظ في البداية – في القرن العاشر – تمييزا بين الأسمين (٢٩). ولكن منذ أواخر هذا القرن أخذ بالاكثار من استعمال كلمة تركمان كبديل أو مرادف لكلمة غز ، ويقول محمود كاشغري : « أغز قبيلة من الترك وهم التركمانية » ويقول أيضا : « تركمان هم الغزية » ويبدو أن اسم تركمان كان اسما سياسيا شمل عددا من القبائل التركية ، لذلك كان – كما يبدو – بين التركمان عناصر غير غزية ، ويقول الكاشغري متحدثا عن القبيلة التي جاء منها القراخانية : « قرلق جيل من الترك أهل الوبير سوى الغزية وهم التركمانية أيضا » (٣٠).

ويذكر الكاشغري بأن « التركمانية هم اثنان وعشرون بطنا لكل بطن منها علامة وسمة على دوابهم يعرف بعضهم بعضها ، وعندما عدت أسماء هذه البطون بين بأن قنق هي القبيلة المتقدمة بين كل القبائل » ومنها السلاطين « السلاجقة الذين يبدو أن أسرهم لم تكن في الأصل أكبر أسر القنق أو أكثرها قوة وشهرة ولكنها غدت كذلك بفضل بعض الشخصيات التي ظهرت منها (٣١) عندما جاءت الى أراضي الدولة السامانية.

إن مصدرنا الأساسي بالنسبة لأخبار وأصل الأسرة السلجوقية –

كما ذكرنا من قبل - هو كتاب ملك نامه ، وعلى ما جاء فيه اعتمد المؤرخون العرب مثل ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ والحسني في كتابه أخبار الدولة السلجوقية - أو زبدة التواريخ - وابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب وغيرهم ، ولعل ما نقله ابن العديم أوضح النقول وأكثرها أمانة ، ويقول ابن العديم : « ذكر صاحب كتاب ملك نامه الذي صنفه لالب أرسلان محمد بن داوود أنه استفاد أذسابهم وأحسابهم من الأمير اينانج بك إذ كان أسن القوم وأعرفهم بأذسابهم وأحسابهم ، قال كان الأمير سلجوق بن تقاق من أعيان ترك خزر ، وكان تقاق يلقب بتمر بالغ اي شديد القوس .

قال اينانج بك : « لما مر زمان على الأمير تقاق ولد له مولود مبارك سماه سلجوقا ، وكان يلقبه بسباشي يعني مقدم الجيش ، وكان لسلجوق أربعة أولاد : ميكائيل وموسى وأرسلان الملقب ببيغو اكلان وآخر توفي في زمان شبابه ، وكان للأمير ميكائيل بن سلجوق ولدان طغرل بك وداود جفري بك » ( ٣٢ ) .

لقد قدم ابن العديم نصه هذا عرضا أثناء ترجمته للسلطان الب أرسلان ، لذلك جاء قصيرا لايفي بالغرض ، وما أورده ابن الأثير في الكامل أوفى بكثير مما جاء عند ابن العديم ، لكن ابن الأثير على عكس ابن العديم لا يصرح باسم مصدره ولعله نقل يتصرف عن ملك نامه وأضاف الى معلومات هذا الكتاب معلومات من مصادر أخرى ، يقول ابن الأثير : « فأما تقاق فمعناه القوس الحديد ، وكان شهما ذا رأي وتدبير وكان مقدم الأتراك الغز ومرجعهم إليه لا يخالفون له قولا ولا يتعدون أمرا ، فاتفق يوما من الأيام أن ملك الترك الذي يقال له يبغو جمع عساكره وأراد المسير الى بلاد الاسلام فهناه تقاق عن ذلك وطال الخطاب بينهما فيه ، فأغلظ له ملك الترك الكلام فلطمه تقاق فشج رأسه فأحاط به خدم ملك الترك ، وأرادوا أخذه ، فماتعهم وقاتلهم واجتمع معه من أصحابه من منعه ففترقوا عنه » .

واقام دقاق عنده وولد له سلجوق ، فإنه لما كبر ظهرت عليه امارات النجابة . ومخايل التقدم ، فقرّبه ملك الترك وقدمه ولقبه سباشي ، ومعناه قائد الجيش ، وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من تقدمه وطاعة الناس له والانقياد اليه ، واغرته بقتله وبالغت في ذلك ، وسمع سلجوق الخبر فثار بجماعته كلهم ومن يطيعه من دار الحرب الى ديار الاسلام وسعد بالايمان ومجاورة المسلمين ، وازداد حاله علوا وامرة وطاعة واقام بنواحي جند ، وادام غزو كفار الترك ، ، ولقد حدث هذا ربما في حوالي سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م وهذا ما يمكن استنتاجه من بقية سياق الخبر لانه في هذه السنة كان ارسلان بن سلجوق يساعد السامانيين ضد البغراخان هارون الذي اخذ في هذه السنة بخارى فزال الحكم الساماني وأحل محله الدولة القراخانية ، هذا ويقدم الراوندي سببا أكثر اقتناعا لتحرك السلاجقة نحو الأراضي الاسلامية فيقول : « وقد اضطر هؤلاء السلاجقة العظماء بسبب ازدهام ديارهم وضيق مراعيهم أن ينزحوا من تركستان الى ما وراء النهر . » وواضح أن خبر سبب الخلاف بين دقاق والبيغو ثم سبب نزوح سلجوق قد لا يعدوان أكثر من اختراع قد صنع بعد قيام الدولة السلجوقية لتحسين سمعة السلاجقة واعطائها نوعا من أنواع الهالة الاسلامية الروحانية ، ويستنتج مما نقله ابن العديم عن ملك نامه قول صاحبها « وأرسلان الملقب ببيغو » أن السلاجقة مع أتباعهم عندما انفصلوا عن الغزوة ادعوا لأنفسهم نفس الألقاب التي كانت لدى أمراء الغزاة الذين كانوا يدينون بالطاعة لهم .

ونتابع مع ابن الاثير رواية قصته : « وكان لسلجوق من الأولاد ارسلان وميكايل وموسى وتوفي سلجوق بجند وكان عمره مائة وسبع سنين ، ودفن هناك ، وبقي أولاده ، فغزا ميكايل الكفار الأتراك ، فقاتل وياشر القتال بنفسه فاستشهد في سبيل الله ، وخلف من الأولاد بيغو وطغرلبك محمد وجفري بك داود ، فأطاعتهم عشائرهم

ووقفوا عند أمرهم ونهيمهم، ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخا منها ، فخافهم أمير بخارى فأساء جوارهم وأراد إهلاكهم والايقاع بهم ، فالتجأوا الى بغراخان ملك تركستان وأقاموا في بلاده واحتموا به وامتنعوا ، واستقر الأمر بين طغر بك وأخيه داود أنهما لايجتمعان عند بغراخان ، إنما يحضره أحدهما ويقيم الآخر في أهله خوفاً من مكر يمكره بهم ، فبقوا كذلك ، ثم ان بغراخان اجتهد في اجتماعهما عنده فلم يفعل ، فقبض على طغر بك وأسره ، فثار داود في عشائره فاقتتلوا فانهزم عسكر بغراخان وكثر القتل فيهم وخلص أخاه من الأسر وانصرفوا الى جند وهي قريب بخارى فأقاموا هناك».



إن عندما أصبح السلاجقة مع اتباعهم في منطقة بخارى تورطوا في الأعمال والاضطرابات التي أدت الى تصفية الدولة السامانية ، كما وجدوا أنفسهم طرفا في النزاعات بين أمراء القراخانية ، كل هذا يعني أنهم كانوا دائما جاهزين لتقديم خدماتهم لمن يطلبها ويدفع أكثر ، ومع ازدياد الفوضى التي رافقت زوال الدولة السامانية كان هناك دائما حاجة ماسة الى المقاتلين ، وكان هناك دائما من يدفع بسخاء سواء في مناطق ما وراء النهر أو الجهة الأخرى حيث محمود الغزنوي ومشاريعه التوسعية التي كانت تحتاج الى أعداد كبيرة من المقاتلين ، ونمضي مع ابن الأثير في رواية قصته: « فلما انقرضت دولة السامانية وملك إيلك الخان بخارى أعظم محل أرسلان بن سلجوق عم داود وطغرل بك بما وراء النهر ، وكان علي تكين - من أمراء القراخانية - في حبس أرسلان خان وهو إيلك خان ، فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع أرسلان بن سلجوق فامتدعا واستفحل أمرهما وقصدهما إيلك أخو أرسلان خان وقاتلتهما فهزماه وبقيا ببخارى ، وكان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين فيما يجاوره في بلاده ويقطع الطريق على رسله المترددين الى ملك الترك ، فلما عبر محمود جيحون ... هرب علي تكين من بخارى وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فإنهم دخلوا المفازة والرمل فاحتموا من محمود ، فرأى محمود قوة السلجوقية وما لهم من الشوكة وكثرة العدد فكاتب أرسلان بن سلجوق واستماله ورغبة ، فورد اليه فقبض يمين الدولة عليه في الحال ولم يمهل وسجنه في قلعة ، ونهب خراكهاته - خيمه - واستشار فيما يفعل بأهله وعشيرته ، فأشار أرسلان الجانب ، وهو من أكبر خواص محمود ، بأن يقطع أباهمهم ، لئلا يرموا بالذئاب ، أو يفرقوا في جيحون ، فقال له : ما أنت إلا قاسي القلب ، ثم أمر بهم فعبروا نهر جيحون ففرقهم في نواحي خراسان ، ووضع عليهم الخراج ، فجار العمال عليهم وامتدت الأيدي الى أموالهم وأولادهم »

(٣٣)

ويقدم لنا الراوندي صاحب راحة الصدور آية السرور رواية

أخرى حكى فيها كيف تم الاتصال بين محمود والسلاجقة وقدم بعض التفاصيل الإضافية الجديرة بالاعتبار ، ولكنه اعتبر ينبغي أن يرافق بالحذر ، يقول الراوندي : « فلما أقبل اسرائيل بالغ محمود في اكرامه واجلسه على العرش الى جواره وعني بتقريبه والترحيب به ، والاهتمام بأمره ، ثم قال له في أثناء الحديث : عندما نذهب الى بلاد الهند لغزو الكفار يلزمنا جيش جرار نسير به الى هذه الديار ، وينتج عن ذلك أن بلاد خراسان تبقى معطلة مهملة ، ولي رغبة في أن أعقد معكم ميثاقا وتحالفا على أنه اذا خرج علي عدو او ثار شائر واحتجت الى مدد استعنت بخيلكم وفرسانكم » واجاب اسرائيل قائلا : « لن يكون منا تقصير عن خدمتكم ، وقال محمود : واذا عرضت لنا حاجة فبأي امانة يصلنا المدد ، وما مقدار عدده ؟ . وكان اسرائيل يعلق قوسه في ساعده ، ويتلى من رباط رداءه سهمان ، فأخذ سهمًا منهما وأعطاه لمحمود وقال له : أرسل هذا السهم الى جنودنا اذا عرضت لك حاجة اليها يأتك منا مائة الف فارس ، قال محمود : واذا لم يكف هذا العدد فماذا نفعل ؟ فتناول اسرائيل السهم الآخر وقدمه الى محمود وقال : أرسل هذا السهم الى جبل بلخان يأتك على الفور خمسون الف فارس غيرهم . قال محمود : فاذا لم يكف هذا العدد ايضا فماذا نصنع ؟ عند ذلك ناوله اسرائيل قوسه وقال : أرسل هذا الى امانة تركستان يأتك اذا شئت مائتا الف فارس ، وتدبر محمود هذا الحديث وشغل باله فاحتجز اسرائيل عنده ... وطلب محمود الطعام ، فلما تهيأ المجلس طعما وشربا وظلا يشربان ثلاثة أيام بلياليها ، وخلع محمود على اسرائيل وفرسانه أطيب الخلع والهدايا ، ثم امر كل واحد من أمراء جيشه أن يستضيف في معسكره واحدا من أمراء فرسان اسرائيل وأن يسقيه شرابا قويا ، حتى اذا لعبت الخمر برؤوس الضيوف قيدهم بالقيود الثقيلة وفعل محمود باسرائيل مثل ذلك ، وحمله في أثناء الليل الى بلاد الهند وحبسها في قلعة كالنجر .. فأما الرؤساء الآخرون من جيش اسرائيل ممن قبضوا عليهم فإن محمود قد أرسلهم الى القلاع الأخرى وأمنهم على حياتهم...

وبقي اسرا ئيل اسيرا في قلعة كالنجر مدة سبع سنوات ، ثم جاء اثنان من التركمان من فرسانه واشتغلا بالسقاية وحمل الماء الى هذه القلعة ، حتى اذا حانت لهما فرصة في احد الايام قابلاه وديبرا معه حيلة لكي يقوما بخطفه واخراجه من القلعة في اثناء الليل ، ولكن الطريق كانت ملاءى بالغابات والاحراش ، فلما فعلا ذلك ضلوا جميعا الطريق .. فلما كان اليوم التالي وتنبه حارس القلعة للأمر سار في اثره ، وتمكن من القبض عليه ، وكان اسرا ئيل عندما احس بأن الجيش يقترب منه قد قال للتركمانيين : اقطعوا الأمل في تخليصي وانهبا الى اخوتي وقولا لهم : اجتهدوا في طلب الملك ولا تياسوا ولو اصبتم بالهزيمة عشرات المرات ، وحذار أن تتراجعوا فإن السلطان محمود ما هو الا ابن عبد لانسب له ، وهو رجل غدار لن يبقى الملك له وستدول دولته على ايديكم ... وكان قتلش بن اسرا ئيل يطوف متخفيا حوالي القلعة ، فلما بلغه الخبر بوفاة أبيه خرج .. حتى أتى الى بخارى وحكى لاعمامه سائر الأحوال ، وكان أعمامه يتأهبون لطلب الملك ويتحينون الفرصة للانتقام ... ثم ارسلوا الى السلطان محمود رسولا زودوه برسالة فحواها: إن مقامنا أصبح يضيق بنا ،

وإن مراعيينا أصبحت لا تفي بحاجة مواشينا ، فانن لنا أن نعبّر النهر وأن نجعل مقامنا بين نسا وياورد ، ولكن ارسلان الجانب حاكم طوس ... قال للسلطان : ليس من الصواب أن تسمح لهم بالعبور الى

خراسان ، فإنهم فرسان كثيرون ويملكون العدة والعتاد ، واني أخشى أن يكونوا سببا في متاعب لا يمكن تلافيها وتداركها .. ولكن السلطان محمود لم يلتفت الى قوله وقال : انني لاهتم بأمرهم ولاخشية لي

من أمثالهم ثم سمح لهم فعبروا النهر « (٣٤) . إن هذه التفاصيل التي قدمها كل من ابن الأثير والراوندي لا يمكن قبولها لغلبة الخيال والمبالغة عليها ، على أنه رغم ذلك فانها تدل على قيام علاقات متقلبة

بين محمود والسلاجقة وعلى ازدياد اضطراب الأحوال في بلاد ما وراء النهر مما اضطر قسما من التركمان الى عبور النهر الى بلاد خراسان .

ويبدو أن حادث العبور هذا قد وقع حوالي سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ، وسواء أكان عبور التركمان قد تم بالاكرام أو بالأن ، فإن التركمان - كما يبدو - كانوا منذ تحولهم الى الاسلام ، يحاولون - وهم تحت الضغوط المعاشية والسياسية الشديدة التي كانوا يحيونها - أن يجنوا مخزجا وأرضا يهاجروا اليها ، ويروي عدد من المؤرخين أنه في سنة ٤٠٩ / ١٠١٨ أو ٤١٢ هـ / ١٠٢١ قاد جفري بك فرقة من التركمان وقطع معها المسافة الشاسعة نحو أرمينية وأذربيجان ، ولعل الهدف من ذلك كان التحضير لآعمال غزو أو كان مجرد محاولة اكتشاف مكان مناسب يقدم اليه الغز مهاجرين (٣٥).

لقد كان التركمان الذين عبروا النهر هم جماعة أرسلان فقط وكان عددهم يقدر بأربعة آلاف أسرة ، ولقد عبروا مع حوائجهم وأغنامهم وجمالهم وخيولهم وبغالهم ، وبعد عبورهم أسكنهم محمود دانلقان ، وهي « بلدة من نواحي مرو الشاهجان على عشرة فراسخ منها بالرمل .. وهي بين سرخس ومرو » (٣٦) ويروي المؤرخ الفارسي الراوندي بأن هؤلاء التركمان « قد لزموا جانب الهدوء والسكينة طوال حياة السلطان محمود ، وفي هذه الاثناء نشأ ولدان ليكائيل بن سلجوق أحدهما « جفري بك أبو سليمان داود » والآخر « أبوطالب طغرل بك محمد » وفاز كلاهما بمكان الصدارة والتقديم في جيوش السلاجقة (٣٧) ويبدو أن هذا لم يكن حقيقة مما حدث فالذين عبروا النهر كانوا جماعة اسرائيل فقط وأما جماعة ميكائيل فقد بقوا في منطقة ما وراء النهر ، وبسبب أن اتباع اسرائيل قد حرموا من قياداتهم باعتقال محمود لها وبسبب تكوينهم البدوي وحالتهم المعاشية فقد تحولوا الى عصابات شغلت أنفسها بأعمال الاغارة على مدن وقرى خراسان ونهبها ، مما أدى الى اضطراب جبل الأمن في خراسان وجعل الكثيرين من أهالي مدن خراسان يتوجهون بالشكوى الى محمود ويطلبون منه القيام بعمل حازم يضع حدا للاضطراب ، ويقول مصدر معاصر لمحمود : « فلما وصلت سنة ٤١٨ هـ ( ١٠٢٧ م ) الى نهايتها خرج أهل نسا وباورد الى

الحضرة ( أي مدينة غزنة) وشكوا الى السلطان فساد التركمان ، فأمر السلطان محمود بكتابة رسالة الى أمير طوس رابي الحارث ارسلان الجانب وأمره أن يعاقب التركمان... فنفذ أمير طوس حكم السلطان وأغار عليهم فتجمع التركمان وتقدموا اليه وحاربوه وقتلوا كثيرا من الخلق ، وأغار عليهم أمير طوس ، بعد ذلك عدة مرات ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا... وتراسل السلطان محمود مع أمير طوس فأجابه الأمير قائلا : لقد قوي شأن التركمان ، ولايستطاع دفع فسادهم الا اذا خرج اليهم السلطان بشخصه... فلما قرأ محمود هذه الرسالة ضاق صدره وجرّد الجيش، ثم خرج من غزنه في سنة ٤١٩ ( ١٠٢٨ ) فذهب الى بست ثم سار منها الى طوس وهناك استقبله أميرها وبين له حقيقة الحال ، فأمر محمود بأن يخرج أمير طوس ومعه فوج كثيف من الجيش لمحاربة التركمان ، فلما وصلوا الى رباط فراوة تقابل الجيشان... وكانت الغلبة لجيش محمود فأعملوا سيوفه في رقاب التركمان وقتلوا منه أربعة الاف من خيرة الفرسان ، وأسروا عددا كبيرا منهم وفر الباقون الى بلخان ودهستان ..

ويستلخص من ابن الأثير أن أعمال محمود وولاته العسكرية ضد التركمان والنجاحات التي حققت مع الانتصارات التي تمت لم تكن حاسمة ، فلقد سببت فقط تمزق التركمان وتوزعهم في مناطق خراسان مما زاد من اضطراب حبل الأمن ، ويبدو أنه خلال هذا الوقت لم ينقطع سيل تدفق التركمان وعبورهم لنهر جيحون الى خراسان في مجموعات متفاوتة الحجم ولقد حدث أثناء تمزق التركمان أن جماعة من حوالي « ألفي خركاه» توجهوا الى أصبهان باتجاه العراق العجمي وأصبحت منطقة نشاطهم أصبهان والري وأصبحوا يعرفون منذ ذلك الوقت باسم العراقية (٣٨).

عندما عاد السلطان محمود من حملته ورجع الى غزنة أبقى ابنه مسعودا وراءه في خراسان ، ولقد قام مسعود أثناء وجوده في خراسان باستخدام بعض التركمان في قواته ، وفي سنة ٤٢١ هـ /

١٠٣٠ م توفي السلطان محمود الغزنوي ، ولقد كانت العلاقات بين السلطان محمود في سنواته الأخيرة وبين ابنه الأكبر مسعود سيئة الى حد أن محمودا حاول أكثر من مرة أن يلقي القبض على مسعود وقام محمود أيضا في أخريات أيامه فعين ابنه محمدا وليا للعهد ، وعندما توفي محمود كان مسعود في خراسان ، لذلك سارع أخوه محمد الى غزنة وأعلن نفسه سلطانا جديدا على الامبراطورية الغزنوية ، وهنا قرر مسعود الزحف على غزنة ، واثناء مسيره نحو غزنة أدخل مسعود عددا لابأس به من التركمان في قواته ، وطبعاً استطاع مسعود نونما صعوبة كبيرة أخذ غزنة ونفى اخاه عن السلطنة وعنها (٣٩).

واثناء الصراع على العرش الغزنوي عاد التركمان الذين كانوا قد « ذاقوا حلاوة غنائم خراسان ... سيرتهم الاولى من النهب والسلب » وبعد أن أصبح مسعود سلطانا على الامبراطورية الغزنوية تتابع تدفق التركمان على خراسان وازداد نشاطهم فيها ، ويذكر البيهقي أنه في صيف سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م « جلس السلطان مسعود ذات يوم للاستقبال ، وكانت رسالة من صاحب بريد الري قد وصلت وفيها أن التركمان لا يقر لهم قرار ... وانهم على وشك أن يفسدوا في الأرض ». وحاول بتصرف صبياني أن يحل مشكلة التركمان بالري وغيرها ، وذلك بأن يدبر أولا بنوع من التامر أمر القبض على التركمان الذين كانوا في هراة ، ومن ثم ينقلون الى غزنة ، وبعدها تتابع الخطة مع غيرهم من تركمان مدن خراسان ، ولقد بدت صورة مستقبل الامور في خراسان للذين كانوا على بيئة ومعرفة ببواطن الامور وهم رجال السياسة والخبرة في الدولة الغزنوية الذين وجدوا أنفسهم يقانون من قبل سلطان « مستبد براهه عن غير روية » ، بدت هذه الصورة سوداء لاتبشر بالخير لا في خراسان ولا في غيرها من اراضي الغزنويين ، ويروي البيهقي - الذي شغل وظيفة نائب رئيس ديوان الرسائل في عهد السلطان مسعود - في كتابه صحائف مسعودي الذي ترجم الى العربية باسم تاريخ البيهقي ، بأنه عندما خطط مسعود للقضاء على تركمان الري

كما ذكرنا أعلاه قال له استاذاه أبو نصر مشكان رئيس ديوان الرسائل : « اكتب الي وكيل جوزجان وكروان رسالة مني لكي يعرض للبيع ، بمجرد قراءة هذه الرسالة عشرة الاف من غنمي كباشا ونعاجا ، وأن يبيعها بسعر اليوم ويرسل ثمنها ذهباً وفضة الي غزنة ، فكتبت الرسالة فذيلها بخطه ثم أودعت ظرفاً ووضعته في بريد جوزجان ، ثم وضعت الحلقة في كيس البريد وأغلق وأرسل . واسترسل استاذي في تفكير عميق ، وكنت أحدث نفسي بأن السلطان اذا كان قد أمر بالقبض على التركمان في الري ، فما معنى بيع غنم رباط كروان بسعر اليوم؟ وقال لي استاذي : اراك قد استغرقت في التفكير في حديث التركمان والقبض عليهم ، ورسالتني لوكلي لي بيع الغنم؟ فقلت : والله وحياء مولاي اني أفكر في هذا . فقال : اعلم أن القبض على التركمان أمر مخالف للصواب ، لأن من المحال أن تقبض على ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف فارس ، ولم يأت كتاب للسلطان يبين الحيلة في القبض على التركمان ، ولكنه يسارع ويأمر بالقبض على نفر منهم في هراة وبأن تجلى خيامهم وامتعتهم وبهذا يثيرون هؤلاء القوم الذين جاءوا مع رحالهم وتصل الأخبار الي الري فيثيرون تركمانها ويجيء ابن يغمر - أحد قادة تركمان خراسان - من بلكان كوه مع فرسان آخرين اقوياء فينضم التركمان بعضهم الي بعض ويدخلون خراسان ويسلبون كل ما يجدون من الماشية ، لقد تنبأت بهذه الأمور فأمرت ببيع غنمي لأنها لو بيعت بأقل من ثمنها الأصلي فاني سأحصل من ثمنها على شيء ، ولاتذهب أموالى سدى» (١٠).

لقد كانت أوضاع خراسان سيئة بقدر كبير ، لكن ليس بسبب التركمان وأعمالهم فقط وانما - أكثر - بسبب سوء الإدارة الغزنوية وسياستها المالية فقد كان حاكم خراسان زمن مسعود اسمه سوري ، وسوري هذا « كان رجلاً مشهوراً بالظلم ، فإنه حين أطلقت يده في خراسان استأصل شافة اعيانها ورؤسائها واستحوذ على أموال لاتحصى ، وامتد ظلمه الي الضعفاء ، وكان يقاسم السلطان ، يعطيه خمسة من كل عشرة دراهم يفتصبها ، أما الاعيان

فقد تقطعت بهم الأسباب فكتبوا الرسائل الى وراء النهر ، وأوفدوا  
رسلم شاكين لامراء الترك كي يغفروا التركمان بالفزنويين ، وأما  
الضعفاء فإنهم بثوا الله الامهم « (٤١) .



وإذا ما عدنا الى منطقة بلاد ما وراء النهر حيث بقية السلاجقة  
اتباع موسى وميكائيل ولدي سلجوق نجدهم في خدمة علي تكين خان  
بخارى ، ويبدو أن موسى كان قد أصبح البيغو لهؤلاء التركمان ،  
ولكن القيادة الفعلية والزعامة الحقيقية لم تكن له إنما لولدي أخيه  
ميكائيل جفري بك وطغرلبك ، ويبدو مما رواه ابن الاثير أن  
العلاقات بين علي تكين والسلاجقة لم تكن دائما سليمة وذلك بسبب  
طبيعة التركمان البدوية ثم لتدفق أعداد كبيرة من الغز من السهوب  
على أراضي الدولة القراخانية والانضواء تحت راية السلاجقة. ومهما  
تكن الحال فإن علي تكين كان « نكيا فذا محنكا يعرف كيف يعمل  
المدارة مع الجانبين ، وكان يتخذ له عدة من التراكمة والسلاجقة  
ويكسبهم لجانبه بالقول الطيب والمال فقد كان يرى أنهم لو ابتعدوا  
عنه ضعف مركزه . « وفي سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م توفي علي تكين «  
ولما مات انتقلت أمور - ولايته - الى ولدين ضعيفين ... وساعت  
العلاقات بين السلاجقة من ناحية وبين هذين الولدين وقووش  
سبسهلار - قائد قوات - علي تكين من ناحية أخرى ، ولم يعد  
باستطاعة السلاجقة البقاء في بلاد القراخانية ، ولم تكن لهم القوة  
الكافية للذهاب لخوارزم واحتلالها ، ولم يكن من المعقول عودتهم  
الى السهوب ، أو الهجرة نحو دربند لوجود دولة الخزر ، لذلك لم يكن  
« لهم مأوى في غير خراسان « فقد الجأتهم « الضرورة اليها ،  
وخاصة بعدما سمعوا عما حصل عليه أتباعهم « الذين عبروا قبلهم  
من المكانة (٤٢) لذلك قام « التركمان والسلاجقة مع جمع كبير من  
الرجال « قدر « بعشرة آلاف فارس تركي مع كثير من القادة . «  
فعبروا النهر وساروا الى مدينة نسا ، وبعد عبورهم كتبوا الى  
سوري حاكم خراسان الفزنوي كتابا نصه : « الى حضرة الشيخ  
الرئيس الجليل السيد مولانا أبي الفضل سوري . من العبيد بيغو  
وطغرل وداود موالى أمير المؤمنين ، لقد استحالت علينا الاقامة في

بخارى ، في بلاد ماوراء النهر ، فقد كانت صلتنا بعلي تكين إبان حياته صلة مجاملة وود وصداقة ، واليوم وقد مات وال الأمر الى ولديه ، وهما طفلان طائشان قد استولى عليهما وعلى الدولة والجيش السبوسلار قونش قائد والدهما ، وقد عادانا حتى استحال علينا العيش هناك ، وإن خوارزم مضطربة أحوالها ... مما يجعل مسيرنا اليها متعذرا ، ولذلك جئنا نلوذ بسلطان العالم ولي النعم ليكرمنا الشيخ سوري ..... والسلطان يقبلنا عبيدا له ، فيقوم احدنا بالخدمة في البركاه وينفذ الأخران ما يأمر به السلطان من خدمات ، فندستريح في ظله الوارف ، ويمن علينا بولايتي نسا و فراوة ، وهما على حدود الصحراء حتى نستقر فيهما ويهدأ بالنا ، ولن ندع مفسدا يخرج على الدولة من بلخان كوه ودهستان وحدود خوارزم وجوانب جيحون ، وسنطارد تركمان العراق وخوارزم .

ولاندري إذا رفض السلطان ، والعياذ بالله ، التماسنا كيف تصير الأمور ، فليس لنا على وجه الأرض مكان نقيم به . . ويستخلص من هذه الرسالة عدة أمور خطيرة ، فقد اعتبر السلاجقة أنفسهم جماعة مستقلة ، وذلك حين ذكروا بأنهم موالى امير المؤمنين وليس موالى السلطان مسعود ، ثم انهم لجأوا الى التهديد وطالبوا بالقبول بما كان قد حدث كأمر واقع ، وباختصار لقد قدموا الى خراسان لا كرامة ابل بل كأمرء « ممن يلون الولايات » .

ولقد كتب سوري في رسالته التي أرسلها الى مسعود يخبره فيها بأمر عبور التركمان « أن عشرة الاف فارس من السلاجقة والينالين قد جاءوا الى نسا » . كما أن السلاجقة في رسالتهم الى سوري قد تعهدوا بمطاردة تركمان العراق ، ولقد كنا قد تعرضنا مسبقا لتركمان العراق فأشرنا الى أنهم كانوا جماعات التركمان الأولى التي توغلت نحو العراق العجمي ، وهؤلاء العراقية كانوا - كما يبدو من البهيقى وابن الاثير - مؤلفين من عصابات مستقلة من التركمان وقد بقوا هكذا فلم يعترفوا فيما بعد بسلطان الأسرة السلجوقية ، ويمكن أن يكون لهم صلة بالناوكية ، جماعة التركمان الأولى التي

دخلت بلاد الشام ، والتي سنأتي على دراستها ودراسة الدور الذي قامت به في الفصول المقبلة ، ولكن هذه هي المرة الأولى التي نسمع بها بجماعة الينالية .

للوهلة الأولى توحي رسالة سوري بأن « الينالية » كان عبارة عن اسم اطلق على احدى اسر او قبائل التركمان ، ولكن واقع الحال ليس كذلك ، فالينالية اسم اطلق على اتباع ينال أو إينال ، وينال عبارة عن لقب اطلق على « ولي عهد » البيغو إذ كان « لكل رئيس من رؤساء الترك من ملك أو دهقان ينال ، أي ولي عهد » . وابراهيم كان هو اسم زعيم الينالية الذين عبروا النهر ، وتجعله المصادر أخا لطرز لبك من أمه ، وسيقوم ابراهيم ينال - كما سيمر معنا - بعدة حركات تمرد وثورات ضد طغر لبك خاصة سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م حيث أخفق ولقي حتفه ، وعلى هذا الاساس ، وبسبب المكانة التي احتلتها الجماعة الينالية بين السلاجقة ، لايجوز ان تفسر الاعمال التي قام بها ابراهيم ينال حركات تمرد وإنما حركات هدفت لاستعادة حقه في السلطة التي اغتصبت من قبل طغر لبك .(٤٢)

عندما وصلت اخبار عبور التركمان مع رسالتهم ورسالة سوري الى السلطان مسعود قامت في بلاطه مشاورات طويلة حول انجع الوسائل وافضل السبل لمعالجة هذه القضية الخطيرة ، ويقدم لنا البهقي وصفا شاملا وبقيا لما حدث من مناقشات ، فقد دعا مسعود اليه اركان بولته من مدنيين وعسكريين وخاطبهم شارحا لهم الوضع بقوله : « ليس هذا امرا هينا ، لقد جاء عشرة الاف فارس تركي مع كثير من القادة ، واقاموا وسط بلادنا ويقولون لم يبق لنا من مكان ناوي اليه ، والحق أنهم استضعفوا بلدنا ، لن نهلمهم ليجدوا في بلادنا مستقرا يترعرعون فيه ، انظروا ماذا كان من هؤلاء التراكمة من البلاء والازعاج بعد ان جاء بهم ابي ، واتاح لهم عبور النهر واقامتهم في خراسان ، كانوا رعاة إبل ، وهم الآن ... طالبوا إمارة ، فيجب الا ندعهم يتنفسون في بلادنا ، والصواب ان نسير

بأنفسنا لطردهم ... مع غلمان السراي وجند مختارين ... وان  
نزحف الى نسا زحفا قويا حتى نستأصل شأفتهم ..

لقد كان مسعود عندما وصله خبر عبور التركمان في مدينة جرجان  
« فلما قرأ رسالة سوري توجه الى نيسابور » ، ولقد وجد بعد  
مناقشات طويلة واستعراض للأحوال أن مسعود « لا يستطيع أن  
ينهض الى السلاجقة بشخصه » لأن « جيشه كان قد أصيب بوهن  
شديد بسبب السفر ... وفسد سلاحه بسبب الرطوبة فعلاه الصدا ،  
وضعفت دوابه لأنها لم تأكل علف الربيع » لذلك اختار مسعود « جملة  
من أمراء جيشه ،زودهم بالعدة والعتاد وأرسلهم لقتالهم ..» لقد كان  
عدد هؤلاء الأمراء عشرة على رأسهم الحاجب بكتغدي الذي كان  
مسنا لكن صاحب تجربة وحنكة عسكرية ، وكانت جملة الجيش «  
خمسة عشر الف فارس من كل صنف في أهبة تامة والفين من غلمان  
السراي » ، ومنذ البداية وقبل أن يتحرك الجيش كان بكتغدي يتوقع  
في رأيه « القدر لا ينجح اذا كثر الشركاء » و« ينبغي أن يكون القائد  
الأعلى واحدا ..»

وعرض الحال على السلطان مسعود فقال بعناد « لابد من أن  
يذهب بكتغدي » وهكذا تحركت الحملة في يوم الخميس التاسع من  
شعبان سنة ٤٢٦ هـ / ١٩ حزيران ١٠٣٥ م صوب نسا ،  
وأرسل معها عدد من الفيلة ، ولقد كان معسكر السلاجقة  
وتركمانهم قرب نسا ، وفي رمضان - سنة ٤٢٦ هـ - أشرف  
الجيش الغزنوي على هذا المعسكر ، وأعمل الغارة عليه دون أن  
يأخذ بالحيلة ويحذر طرائق البداية في القتال ، فلقد ترك التركمان  
قبيل دنو الجيش الغزنوي منهم معسكرهم شبه خال من المقاتلين ،  
وانسحب المقاتلون الى حافة الصحراء ، وهناك أعدوا المكامن ،  
وأدى هجوم الجيش الغزنوي على المعسكر التركماني الى افلات  
زام القيادة فيه واختلاط الحابل بالنابل واختلال نظام تعبئته ،  
الفرصة التي أعد لها السلاجقة فاغتنموها بالانقضاض على  
أعدائهم « وكان اليوم شديد القيظ ، واشتعلت الرمضاء وجفت شفاه

الجند والدواب من العطش « ولقد كان الماء وراء الجيش الغزنوي فحاولت بعض فرقه التراجع نحو الماء « رويدا رويدا بالكر والفر » فلم يستطيعوا تدبر ذلك ، فولى الجيش مدبرا وتفرق أيدي سبأ ، وهكذا حقق السلاجقة أول انتصار رائع لهم بشر بأن خراسان ستكون لهم ، ولقد غنموا كل ما كان لدى الجيش من الآلات وعدد ، ويقول الراوندي : « واستولى السلاجقة على ما قيمته عشرة ملايين من الدنانير من الألبسة والأسلحة والأمتعة والدواب » .

لقد كانت « هذه أول هزيمة جدية وقعت « على السلطان مسعود » وتوالت الهزائم بعدها وهنا على وهن « ولقد تملكت التركمان الحيرة ودهشوا للنصر المؤزر الذي نالوه ، وكثيرة الآلات والذعم والدواب والذهب والفضة والألبسة والأسلحة والعدد التي وقعت في أيديهم ، ولم يصدقوا أن هذا كله قد حدث فعلا ، لهذا « حين أمنوا عقدوا مجلسا وجلس الأعيان والمقدمون والشيوخ في خركاه وأخذوا يتشاورون ، قالوا : إننا قد ظفرنا بهذا كله دون تفكير أو تمهيد ، وإن من المحال الوقوف عند هذا الحد ، ولأسنا نحن الذين غلبنا هذا الجيش العظيم ، ولم يتجاوز الأمر اننا حافظنا على انفسنا وانهم لم يحسنوا تدبير أمرهم ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى وقوع هذا وحتى لانذهب هباء دفعة واحدة ، فغذمنا بغير قصد كل هذه الآلات ، وكنا فقراء فاصبحنا بفضل الله اغنياء ، والسلطان مسعود ملك عظيم ، وليس له في بلاد المسلمين نظير ، وقد حلت الهزيمة بجيشه لسوء التدبير وضعف القيادة ، ولكن له جندا وقادة كثيرين ، فعلينا ان لانعتر بنصرنا ، وعلينا ان نوفد اليه رسولا يتحدث اليه عن ولائنا له ، ويلتمس العذر ، ويبين ان راينا هو دائما ما كنا عليه من قبل ، وانه لم يكن لنا من حيلة سوى المقاومة حين قصد الجند بيوتنا ومتاعنا ، ولنرى ما سيكون جوابه حتى نستطيع ان نتبين طريقنا بعد ذلك » .

على هذا الاساس ارسل السلاجقة رسولا الى السلطان مسعود مع رسالة ترضو العفو والاعذار ، ولقد وجدت الرسالة اننا صاغية

لدى السلطان ، وادت الى تهدئة خاطره ومنعته من ارسال حملة اخرى ، لهذا قام - ردا على رسالتهم - بارسال رسول من قبله يفاوضهم ، ومضى هذا الرسول الى معسكر السلاجقة وامضى فترة من الزمن لديهم ثم عاد الى السلطان ومعه ثلاثة رسل من مقدمي السلاجقة ، احدهم يمثل طغرل بك ، والاخر جفري بك والثالث اليبغو . ( ٤٤ )

ان ارسال السلاجقة لهذا العدد من السفراء يدل على ن التركمان ، على الرغم من ان اليبغو كان من المفروض ، ولو على الاقل نظريا ، ان يكون المقدم عليهم جميعا ، لم يكن لديهم في هذه المرحلة قيادة موحدة ، او بالحري انهم لم يكن يدينون فعليا في هذه المرحلة بالولاء لزعيم واحد ، بل لأكثر من زعيم ، وأن هؤلاء الزعماء كانوا مستقلين الى حد ما عن بعضهم بعضا ، وليس لهم سياسة وهدف واحد يجمعهم ، ولنتذكر أن زعماء السلاجقة عندما ارسلاوا اولى رسالتهم الى سوري عدونها» من العبيد ييبغو وطغرل وداود» .

إن التمزق هذا - كما سنرى - سيكون وسيبقى احدى مزايا التركمان ، وسنجده من الاسباب الكبرى التي اعاققت قيام الامبراطورية السلجوقية ، ثم اعاققت تطورها الى دولة مركزية ، كما سيؤدي الى الانهيار السريع لهذه الامبراطورية ، وهذا التمزق قد لاعم خير ملائمة وضع العالم الاسلامي الذي كان في القرن الحادي عشر ممزقا ، وسنرى كيف عمل عمله في بلاد الشام والجزيرة وكيف كان من الاسباب الرئيسية التي أدت الى نجاح الحملة الصليبية الاولى ، ثم كيف ساعد في انجاح الفرنجة في البقاء في بلاد الشام حتى زال أخيرا بفضل قيام الدولة الأتابكية التي نجحت في توحيد الشام والجزيرة ثم في ضم مصر الى هذه الأجزاء الموحدة .



لقد كانت نية السلطان مسعود أنذاك التوجه نحو الهند ، ولهذا استجاب لمطالب رسل التركمان وأعطى ، متنازلا ، لمقدمي السلاجقة ولايات نسا وفراوة ودهستان وأرسل لكل منهم خلعاً ومنشورا ولواء كما أعطى كل واحد منهم رتبة غزنوية « ووجهت اليهم رسائل منه ، خوطبوا فيها بلقب « الدهقان » وأعدت لهم ثلاث خلع كما هو الرسم في خلع الولاة ، تشتمل الواحدة على قلنسوة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة ( برسم الدولة الغزنوية ) وسرج وكمر من ذهب ( برسم التركمان ) وثلاثين ثوبا غير مخيطة لكل واحد منهم .

يروى ابن الأثير بأن مراسلة السلاجقة للسلطان مسعود كانت مخادعة ، ويتضح من البيهقي أن رجال دولة مسعود كانوا مدركين لهذا الأمر ، ولكن عناد السلطان وطغيانه ثم فراره من مواجهة الواقع المر بالحزم والجد قد حال دون القيام بعمل مجد (٤٤) ، على أن مصادر أخرى توحى بأن السلطان قد حاول أن يفتت السلاجقة ويخلخل صفوفهم بأن يفصل البيغو عنهم ، وبالوقت نفسه أراد أن يؤمن لنفسه بعضا من النفوذ عليهم باقتراح قيام علاقات زواج بين الزعماء الثلاثة والسلطنة ، فاقترح زواج البيغو من ابنة سوري عميد خراسان وزواج طغر لبك من ابنة أحد أمراء الغزنويين ، وجفري بك من امرأة أخرى حرة ، وقبل البيغو الاقتراح بينما رفض الآخران وازدادا جراءة وثقة بالنفس (٤٦) ، وأخذوا يثيران الفتن ويخيفان الناس ويسلبان كل ما يجدانه ، ولقد أخفقت كل جهود والي خراسان في إخضاعهما (٤٧) وتقديرا منهما لقوة مركزهما ولضعف السلطنة عن ذيلهما باندى أرسلنا في أول سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٢٦ م بعثة الى السلطان مؤلفة من رسولين أحدهما كان فقيها من أهل بخارى ، وكان الثاني تركمانيا يمت الى السلاجقة بصلة القرابة ، وكان مع الرسولين رسالة نصها « إننا الى الآن لم نتجاوز حدنا بشيء ، ولكن في خراسان - كما لا يخفى - تركمان آخرون ، وهم لا يزالون يفتون عليها لأن طريق جيحون وبلخان كوه مفتوحين أمامهم ، وهذه الولاية التي منحها إيانا السلطان قد أخذت تضيق علينا ، وأصبحت لاتكفي لسكنى من معنا من الناس ، وكان يرجى

أن .. يمنحنا - السلطان - بعض المدن الصغيرة مثل مرو وسرخس وبادريد ، على أن يكون صاحب البريد والقضاة وصاحب الديوان فيها من قبل السلطان ، فيجبوا الأموال ويصرفوا أرزاقنا ونكون نحن جند السلطان ، فنظهر أرض خراسان من المفسدين ، ونؤدي ما يوكل اليها من خدمات في العراق ، أو أية ناحية أخرى ، طائعين ، ونقدم على أخطر الأعمال بأمره ، ومن الجائز أن يربط الحاجب سباشي بجيشه في نيسابور وهراة ، ولكن إذا قصدنا بسوء فسنضطر الى الدفاع عن أنفسنا فتزول الهيبة من بيننا ، هذا هو ملتمسنا والأمر للسلطان » (٤٨).

لقد عاد السلطان مسعود الى غزنة في سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م قادما من الهند ، ومن غزنة تحول الى بلخ ، والذي سبب تحوله هذا هو أخبار خراسان وندشاط التركمان فيها ، فوجه جيشا عظيما مع الحاجب سباشي ، وكان رد السلاجقة على تحرك مسعود وارساله جيش الحاجب سباشي حازما: المطالبة بالتخلي لهم عن أجزاء جديدة من خراسان ، وتجميد وايقاف الأعمال العسكرية ضدهم ، وعندما وصلت رسالة السلاجقة الى السلطان مسعود أثرت بيه واغضبته وقال لوزيره : « لقد تجاوز هؤلاء القوم الحد في تعديهم وتحكمهم فقد دمروا خراسان من جهة ، بينما يتحايلون بالكر وزخرف القول من ناحية أخرى ، فيجب صرف هذين الرسولين بعد أفهامهما بأن الحكم سيكون السيف وأن الجيوش قد سيرت للقتال » .

لقد كانت ردات فعل السلطان مسعود آنية ، ولم يكن لديه القدرة على مواجهة الأمور كما ينبغي ثم الأخذ بالحزم والتسلح بالمعانة والصبر ، فما أن رجع رسولا السلاجقة من عنده حتى انصرف مسعود الى لهوه وخمره وصيده وترك خراسان للقدر .

وفي مطلع سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م وصلت السلطان مسعود اخبار تفيد بمجيء دفعات جديدة من التركمان الى خراسان ونهبها لبعض مدن الاقليم مثل الطالقان وفرياب والري ، ومرة أخرى ثار مسعود للأخبار ولام الحاجب سباشي ووصمه بالتخاذل والتقصير وكتب إليه

أمر أن يلتحم بالعدو في معركة فاصلة ، وحاول سبإشي أن يدافع عن نفسه ويدفع أمر السلطان ويؤجل تنفيذه إلى أن تقوم الفرصة المواتية لانزال ضربة قاصمة بالتركمان ، ولقد أرسل سبإشي إلى السلطان وصفا للتركمان وأحواله معهم قال فيه .انهم « قسموا رجالهم إلى عشرين أو ثلاثين فرقة ، وهم يعتبرون الصحراء بمثابة الأب والأم منهم ، كما هو حال المدن بالنسبة لنا ، وإني سبإشي لا أزال في الحرب معهم حتى الآن ، وواليت أرسل الطلائع ومواصلة القتال ، وقد تعرفت بحقيقة أحوالهم وأساليبهم في الحرب ، وقد حفظت الذخيرة ، ولم نستطيعوا تثبيت أقدامهم في أي بلد في خراسان حتى الآن ... وليس من الممكن أن يصمد جيش السلطان بغير مدد يعينه فإن خطة هؤلاء الخوارج من طراز خاص ... - حرب التعبئة - ضدهم - ليست من الصواب ، والرأي ما يرى السلطان ، وإني منتظر جوابه وأنا على أهبة تامة ، ولو رأى السلطان ضرورة ضربهم ضربة قاضية والحملة عليهم حملة رجل واحد ، فليأمر ... بوجوب المبادرة بالقتال ، إذ حين تصلني - الأوامر - لن أبقى يوماً واحداً في نيسابور بل سأزحف فوراً إلى سرخس ومرو وأبادر بالقتال » .

وبعد مشاورات طويلة خرج أمر السلطان مسعود : على الحاجب سبإشي « أن يبادر بقتال العدو حتى نرى ما يقدره الله لنا ، وإن رجاءنا في الله عز وجل أن ينصرنا والسلام » .

لقد كانت مرو قد غدت مركزاً للسلاجقة آنذاك ، وكانت نيسابور كبرى مدن خراسان وأشهرها مركزاً للجيش الغزنوي بقيادة سبإشي . ونفذ الحاجب سبإشي أوامر السلطان مسعود والتحم بالسلاجقة « ولم يكذباً الموقعة حتى أصابته الهزيمة . ولنسمع سبإشي ، يصف ما حدث بنفسه : « لقد قامت حرب مع العدو لم أر أصعب منها ، وظلت الموقعة من الصباح حتى صلاة العصر ... - لقد خان السلطان - المنهون - للأخبار - حين حدثوه عن الأعداء ، فهونوا من شأنهم وكنت أعمل في صبر يؤدي إلى فرارهم ، ولكن المنهين ضلوا

السلطان حتى أوغروا صدره علي ، فأمر جزما بوجوب حرب المصاف ، فلما لقيت الأعداء وجدتهم نخبة من المحاربين المعدين ، وقد أراحوا أنفسهم من أثقالهم ، وجرت موقعة ليس أشد هولاً منها

لقد كانت قوات التركمان خفيفة مرنة ليس معها أثقال ولا مؤن ولا نساء بينما كان الجيش الغزنوي جيشاً نظامياً يتحرك بثقل وحسب النظم العسكرية ، يتحرك فيتحرك بحركته الكثير من الأثقال والذخائر والحاجيات ( ٤٩ ) ، لذلك كان حين يدخل المعركة كان لا يستطيع التحرك بمرونة ولا يستطيع أن يقاتل وهو خالي البال ، بل كان يقاتل وخاطره مشغول بما لديه من ذخائر وأهل أكثر مما هو مصروف لربح المعركة والانتصار على الخصم ، يضاف إلى هذا أن التركمان كانوا يفضلون الجيش الغزنوي ليس بهذا فقط بل في الروح المعنوية مع المرونة والبراعة في القتال وايضاً في نوعية الأسلحة ، لقد كان الفارس التركماني يعتمد بالدرجة الأولى على قوسه ، يقوم بالهجمات الخاطفة على خصمه فيصرع فرسه أولاً بأنه يرميه ، ثم ينقض بعد ذلك على هذا الخصم المثقل بدرعه أو سابغته وأسلحته الثقيلة الخاصة التي يصعب استخدامها عليه وهو مترجل فيجهز عليه بسيفه أو دبوسه ، وإذا ما حدث وكان جيش الخصم مؤلفاً من فرسان ومشاة لحماية الفرسان ، كان التركمان يجهدون في البداية لفصل المشاة عن الفرسان ومن ثم كان يتم الإجهاد على كل سلاح على حدة ، وفنون التركمان القتالية هذه سنراها في معركة دندانقان ثم بعد ذلك في معركة منازكرد ، وستظهر خلال جميع معارك الحروب الصليبية وخاصة في معركة حطين .

يعتبر ابن الأثير النصر الذي ناله السلاجقة ضد جيش سبأشي نصراً حاسماً فالمعركة التي خاضوها ضد هذا الجيش الضخم « هي الواقعة التي ملك السلجوقية بعدها خراسان ، ودخلوا قصبات البلاد » فدخل طغرلبيك مدينة نيسابور بعد أن تخلى عنها سوري حاكم خراسان ، وبعد أن هجرتها الحامية الغزنوية ، ودخل داود جفري بك مدينة هراة ، وبعيد دخول طغرلبيك إلى نيسابور أعلن

نفسه سلطانا واصبح يعرف باسم – السلطان المعظم ركن الدنيا  
والدين ابو طالب – واستقبل مع اخيه والبيغو وفادة ارسلها الخليفة  
العباسي من بغداد مع رسالة ينهاهم فيها عن النهب والقتل والاضرار  
ويعظهم ، وربما يمنيهم بالاعتراف بهم كسلطة شرعية لخراسان ،  
ويرى مدى قوتهم ويتعرف بها على ماهية مشاريعهم واهدافهم  
بالنسبة للمستقبل .

ويذكر ابن الاثير وغيره بأن جفري بك اراد أن ينهب مدينة  
نيسابور فمنعه طغرل بك ، واحتج عليه بشهر رمضان الذي تم فيه  
أخذ نيسابور ، فلما انسلخ رمضان صمم جفري بك على القيام  
بعملية النهب ، ومرة أخرى منعه طغرل بك « واحتج عليه برسول  
الخليفة وكتابه ، فلم يلتفت داود إليه وقوى عزمه على النهب ،  
فأخرج طغرل بك سكيناً وقال له : والله لئن نهبت شيئا لأقتلن نفسي ،  
فكف عن ذلك . »

لقد حدث هذا سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٤٨ م ، ويدل هذا الخبر على  
الروح البدوية التي كانت تمتلك السلاجقة وتحكم بهم آنذاك ، هذه  
الروح التي كانت تحب النهب ولا تتخلى عنه ، كما ان هذا الخبر  
يشير الى ان طغرل بك كان قد اصبح الشخصيّة الاولى بين  
السلاجقة والى انه كان يعمل ويخطط من اجل بناء دولة سلجوقية  
كبيرة ، عليها منذ البداية اقامة علاقات طيبة مع الرعية ومع  
الخليفة في بغداد ، واخيرا لاحاجة للتذكير على ان هذا الحدث يدل  
ايضا على مدى نفوذ الروح الاسلامية بين السلاجقة .

ويقدم لنا البيهقي وصفا وثائقيا دقيقا لاحتلال السلاجقة مدينة  
نيسابور ودخول طغرل بك اليها فيه : « بعد ان جاءت الاخبار بما حل  
بالحاجب سباشي اقبل ابراهيم ينال بعد اثني عشر يوما على حدود  
نيسابور ومعه مائتا رجل . وابلغ انذارا مع رسول له : بأنه يمثل  
مقدمة جيش طغرل بك وداود وبيغو ، فاذا كنتم ستحاربون فانه  
يعود ليخبركم بالامر ، واذا كنتم مسالمين فليدخل المدينة وليغير

الخطبة ، فان جيشا كبيرا يسير في اثره » . انزل اهل نيسابور رسول ينال في مكان لائق ، واخذ اعيان المدينة المؤلفين من القاضي والتجار وسواهم يناقشون مآلاتهم وتذكروا قول السلطان محمود غزنوي لجماعة مثلهم واجهوا الحالة نفسها وقرروا المقاومة : « ماشان الرعية بالقتال . . فان كل ملك يتسلط عليكم - ايتها الرعية - ويلزمكم بالخراج ويؤمّنكم ، عليكم ان تدفعوا له الخراج وتحافظوا على انفسكم » (٥٠) لهذا قرر رأي اهل نيسابور على الازعان بالطاعة وتسليم مدينتهم ، فنادوا رسول ابراهيم ينال وسلموه جواب رسالته : « باننا رعية ولنا سلطان ، والرعية ليس من شأنها ان تحارب ، وللامراء السلاجقة ان يدخلوا المدينة فانها مفتوحة لهم ، فاذا كانت لازمة للسلطان فانه سيأتي للمطالبة بها او سيرسل قائدا لهذا الامر ، ولكن عليكم ان تعرفوا ان الناس قد خافوا لما حدث منكم في بلاد اخرى من النهب والمثلة وقطع الرقاب ، ولا بد من انتهاج سبيل اخر ، فان هناك اخرة غير هذه الدنيا ، وقد رأت نيسابور كثيرا مثلكم ، وسلاح اهل هذه البقعة هو دعاء القوامين منهم بالليل ... فلما اطلع ابراهيم ينال على الجواب ... ظهر ... مع اكثر من مائتي فارس وكان معه لواء وجنبيتان وكان في زينة ذابلة وبسيطة ... وكان شابا جميلا الطلعة ، حلو الحديث ... وبلغ طغرل نيسابور بعد ثلاثة ايام ، وخرج الاعيان جميعا لاستقباله ... كان مع طغرل ثلاثة الاف فارس اكثرهم مدرعون (٥١) وكان له قوس بنشاب معلق في كتفه ، وفي وسطه ثلاث سهام ، وكان مدججا بالسلاح ... وكان السلاجقة كيانهم من الغوغاء لانظام لهم ، وكان من يريد التحدث لطغرل يتجرا عليه ويتحدث اليه : « وبعدما دخل طغرل لبك قصر نيسابور » اعتلى سرير السلطان ، وهكذا اعلن نفسه سلطانا جديدا لخراسان (٥٢)

كان السلطان مسعود قد عاد الى غزنة عقب هزيمة الحاجب سباشي ، وفي غزنة تكونت لديه صورة كاملة عما تم في خراسان وبعد مناقشات تقرر ان يتحرك السلطان بنفسه على رأس جيش كبير من اجل استرداد خراسان وطرد التركمان منها ، وكان اول مافعله ان

ارسل الى خراسان بالتصريح التالي : « إنا زاحفون مع خمسين الف فارس وراجل وثلاثمائة فيل ، ولن نعود الى غزنة مهما تكن الظروف حتى نخلص خراسان » ، وفي الأيام الأخيرة من سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م « استعرض - السلطان مسعود - الجيش ، وكان جيشا كثيفا ، قيل أنه ضم أكثر من خمسين الف فارس وراجل كلهم مجهزون بالخيول القوية والسلاح التام » ، وفي الرابع من محرم سنة ٤٣٠ هـ / ٧ تشرين الأول ١٠٣٨ م سار السلطان مسعود من غزنة ، وفي الرابع عشر من صفر / ١٥ تشرين الثاني وصل مع قواته الى مدينة بلخ ، وأطال السلطان الإقامة في بلخ وقامت عصابات من التركمان بقيادة بعض أمراء السلاجقة بالاغارة على اطراف بلخ حيث قوات مسعود ، وفي منتصف مايس تحرك مسعود نحو سرخس « وكان معه جيش كامل الأهبة وقد أجمع الناس على أنه قادر على غلبة اهل تركستان اجمعين لو واجهوه » وتجمع السلاجقة مع قواتهم التي قدرت بعشرين الف فارس قرب منطقة سرخس ، ويبدو أنهم كانوا يخشون الالتحام مع مسعود وقواته لذلك عقدوا مجلسا ناقشوا فيه الوضع وحاولوا ايجاد مخرج . ولقد تشعبت آراءهم حول هذا المخرج ، فكان رأي طغرلبيك والبياليين التوجه غربا نحو العراق وهجر خراسان ، ولم يكن ذلك صعبا « لأن - كما قالوا - حفنة من المرتزقة والديلم والكرد سيقابلوننا هناك ، والصواب أن نذهب ونغتزم الفرصة لأن ثغور الروم ليس فيها مقاتلون ، وأن نترك خراسان وهذه النواحي مع هذا السلطان العظيم القوي صاحب الجيوش الجرارة والرعية العديدة ، ورفض جفري بك هذا الرأي قائلا : « ما أفدح ما وقعتم فيه من الخطأ ، لو أنكم تزحزحتم عن خراسان ، فلن يقر لكم على الأرض قرار لغارات هذا السلطان علينا ، ولما سيثيره من كل جانب أعداء أشداء علينا ولقد رأيت حرب - هذا السلطان وجنده في - الميدان ... لقد كان له كل ما يريد من رجال وعتاد ، ولكن الأحمال الثقيلة ليس في وسعهم أن يكونوا بعيدين عنها فبغيرها لا عيش لهم ، هي سبب عجزهم لأنهم مضطرون الى حماية أنفسهم وحماية متاعهم ، أما

نحن فخفاف لامتع لنا ، وقد حلت الهزيمة ببكتغدي وبسباشي بسبب ثقل متاعهم ، ومتاعنا خلفنا على مسيرة ثلاثين فرسخا ، ونحن بهذا قانعون ، فينبغي أن نمضي في الحرب كالرجال حتى نرى تقدير الله عز وجل .»

إن رأي جفري بك هذا كان فيه الصواب كله، وهو يدل على فهم عسكري ممتاز ، فيه تقدير لمزايا الصديق ومعرفة بمساوىء ونقاط ضعف العدو وكيفية استغلالها .

لقد قدر عدد جند السلاجقة في هذه الأونة - كما أسلفنا الذكر- بعشرين ألف فارس وهناك إشارات إلى أن هذا العدد في الواقع لم يتجاوز الستة عشر ألفا، ولقد حافظ هؤلاء التركمان ما أمكنهم على تقاليدهم في القتال ، فكانوا فارغي البال - كما ذكرنا- من الأثقال والأمتعة لهذا عمدوا الى عدم الالتحام بقوات مسعود في اشتباك مباشر بل أخذوا، بعد أن تخلوا عن نيسابور وغيرها من المدن ، يجرون جيش مسعود المثقل هنا وهناك ، ويعملون النارة عليه فيتعبون افراده جسديا ومعنويا . وهكذا كان الحال الى أن جاء صيف عام ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م ، حيث سار السلطان من نيسابور فسار الجند وراءه متخاذلين ، « كأنهم حقا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، وكان اليوم شديد القيظ ، والمؤن قليلة، والعلف لاوجود له، والدواب هزيلة، والناس صيام، وقد مر السلطان في الطريق على كثيرين يجرون جيادهم ويبكون فامتلا قلبه حسرة، وقال: ماأسوأ حال هذا الجيش » . لقد كانت وجهة مسعود نحو مرو ، وفي الطريق لم يتركه السلاجقة يتحرك بجزرية ، بل كانوا يعملون الغارات المفاجئة على اطراف قواته، يقتلون ويأسرون ويعودون بالغنائم ، وأكره جيش مسعود على التوجه حسب مشيئة السلاجقة والتحرك والتصرف حسبما أراد وه أن يفعل ، وهكذا سيق هذا الجيش العرمرم نحو حواف صحراء الدندانقان، وجعل يعسكر في مكان قليل الماء كثير الرمال لاكلا فيه ولاحوله، وكان التركمان قد القوا الجيف في كافة آبار المنطقة ، ولم يبق هناك سوى آبار حصن دندانقان فأخذ

الجند يتخاصمون على شربة ماء ويتصارعون من أجل الوصول الى  
بئر داخل الحصن ، وهكذا انعدم النظام داخل صفوف الفرزويين  
وفر الكثيرون نجاة بأرواحهم ، أو انضموا الى صفوف التركمان  
الذين اخنوا يغيرون غارات شعواء : ويحملون حملات منكرة على  
من بقي مع السلطان ، واستمرت المعارك عدة أيام كاد السلطان  
مسعود نفسه أن يفقد حياته فيها . لذلك لاذ حفاظا على حياته  
بالفرار ، وتوجه نحو غزنة ليخلع ثم يلقي حتفه - وهكذا تخلى  
نهائيا عن خراسان للسلاجقة (٥٣). ولقد أنصرت الدندانقان هذا  
بقيام امبراطورية اسلامية جديدة، وباندحسار ظل واحدة، وتعتبر  
هذه المعركة من كبريات المعارك الفاصلة في تاريخ الاسلام ، ولم  
تنحصر نتائجها في حدود عالم الاسلام، إنما تعدته فأثرت على عالم  
العصور الوسطى كله .

لقد كانت الغنائم التي كسبها الغز في معركة دندانقان اكثر من أن  
تحصى ، وليس هذا بالمهم ، إنما المهم أن طفر لبك عاد بعد نصره الى  
نيسابور ودخلها مع جموعه في آخر سنة ٤٣١ هـ أو اوائل سنة  
٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م ولم تنج نيسابور هذه المرة من النهب ، ويقول  
الراوندي : « فلما أحرز السلاجقة النصر في هذه المعارك ازدادوا قوة  
ولحقت بهم جيوشهم المتفرقة في أطراف خراسان ، فاشتد وقعهم في  
القلوب، وتقرر الملك لهم ، وسخرت الدنيا لامرتهم، واستحقوا  
السلطان عن جدارة واستحقاق ... واجتمع بعد ذلك الاخوان جفري  
بك وطرز لبك مع عمهما موسى بن سلجوق (٥٤) الذي يطلق عليه اسم  
« ببغو اكلان » ومع ابناء اعمامهم وكبار قومهم وقواد جنودهم ، و  
تعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم، ولقد سمعت أن طفرزلبك  
اعطى لآخيه سهما وقال له: اكسره ، فتناول أخوه السهم ، وكسره  
في هوادة، ثم جمع له سهمين فكسرها أيضا في هوادة، ثم اعطاه  
ثلاثة فكسرها بصعوبة فلما بلغ عدد السهام أربعة تعذر عليه  
كسرها، فقال له طفرزلبك: إن مثلنا مثل ذلك ، فإذا تفرقنا هان لأقل  
الناس كسرنا ، وأما إذا اجتمعنا فلا يستطيع أحد أن يظفر بنا .  
فاذا دشأ خلاف بيننا لم يتيسر لنا فتح العالم، وتغلب علينا الأعداء

ونذهب الملك من أيدينا» (٥٥).

أرسل السلاجقة بعد ذلك رسالة الى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ هـ / ١٠٣١-٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م) يخبرونه بها بما تم في خراسان، ويسوغون حربهم ضد السلطان مسعود ويعلنون تعلقهم بالخلافة العباسية والاسلام السنني ، ومما قالوه في رسالتهم كما رواها الراوندي: «إننا معشر آل سلجوق قوم أطلعنا دائماً الحضرة النبوية المقدسة وأحببناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائماً في غزو الكفار وعلان الجهاد، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة، وكان لنا عم مقدم محترم بيننا اسمه اسرائيل بن سلجوق ، قبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين بغير جرم أو جنائية، وأرسله الى قلعة « كالنجر » ببلاد الهند، فبقي في أسره سبع سنوات حتى مات . واحتجز كذلك في القلاع الاخرى كثيراً من أهلنا وأقاربنا ، فلما مات محمود وجلس في مكانه ابنه مسعود لم يقم على مصالح الرعية واشتغل باللهو والطرب... فلا جرم إذا طلب منا اعيان خراسان ومشاهيرها أن نقوم على حمايتهم . ولكن مسعودا وجه إلينا جيشه ، فوقعت بيننا وبينه معارك تناوبنا فيها كر وفر وهزيمة وظفر. حتى ابتسم لنا الحظ الحسن ... وظفرنا بالقلبة بمعونة الله عز وجل وبفضل اقبالنا على الحضرة النبوية المقدسة المطهرة، وانكسر مسعود وأصبح ذليلاً، وانكفاً علمه وولى الأديبار تاركاً لنا الدولة والاقبال... وشكراً لله على ما آفأ علينا من فتح ونصر، فذشرنا عدلنا وانصافنا على العباد، وابتعدنا عن طريق الظلم والجور والفساد، ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نهجنا وفقاً لتعاليم الدين والأمر أمير المؤمنين » (٥٦).

بعد هذا قام السلاجقة بتقسيم خراسان بينهم ، بحيث أخذ جفري بك جزءاً منها وترك للييغو وبقية الأمراء بقية الأجزاء، وكانت الخطة تهدف الى احاطة الدولة الغزنوية والحيلولة بينها وبين محاولة استعادة خراسان ، ثم تهدف الى ترك طريق جيجون مفتوحاً من أجل قدوم مهاجرين غز جدد من أجل العمل على اكمال احتلال

أراضي الخلافة العباسية وغيرها من ديار الإسلام ، والأراضي البيزنطية، لقد أوكل لطغرل بك تحقيق هذه المهمة الأخيرة وترك معه إبراهيم يئال وأتباعه، وابن عمه قتلмыш ( قتلмыш ) بن أرسلان بن سلجوق وأتباعه، وياقوتي بن جفري بك، وتيسر لطغرل بك احتلال الري - قرب طهران الحالية- فاتخذ منها قاعدة لملكه، ومنها أخذ يبيت قواته لإكمال احتلال الهضبة الإيرانية .

إن ما أوكل إلى طغرل بك ، ثم ما حققه من نجاحات في الوصول إلى بغداد وإقامة الامبراطورية السلجوقية هي أعظم منجزات السلاجقة وأخطرها وأبعدها تأثيرا ليس فقط بالنسبة للتاريخ الإسلامي وإنما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية أيضا .

لقد كانت مهمة طغرل بك ذات شقين ، أو بالحري كان عليه تأمين غرضين أساسيين : الأول الوصول إلى بغداد وبالتالي تأمين طريق الحج إلى مكة ، والثاني تأمين الطريق نحو أرمينية فممتلكات بيزنطة في أسية الصغرى وممتلكات الخلافة الفاطمية في الشام وغيره، ويدل هذا على مطامح واضحة لطغرل بك ثم على فهم سياسي جيد ، وبين ٤٣٢ - ٤٣٦ هـ / ١٠٤٠ - ١٠٤٤ م استطاع طغرل بك احتلال المناطق الواقعة على شواطئ البحر القزويني، وبعد ذلك مد سلطانه على باقي اجزاء الهضبة الإيرانية ، فاحتل بعد الري همذان ثم أذربيجان وقضى على كل مقاومة، خاصة من قبل الكرد والديلم، وأصبح الآن الطريق مفتوحا أمامه نحو بغداد وكذلك الطريق نحو أرمينية .

إن يهتم طغرل بك ويعمل للسيطرة على بغداد ذلك أمر مفهوم ، فكل الذين سبقوه في السيطرة على خراسان كان دائما هدفهم السيطرة على بغداد والتحكم بالخلافة العباسية، وفي تاريخ الدولة السامانية والدولة الصفارية وأعمال محمود الغزنوي أمثلة كافية للبرهان على هذا ، ولكن لماذا اهتم طغرل بك بطريق أرمينية؟

لقد كان طغرل بك يقود جماعة من البداءة الغز، وكان هناك سبيل غير منقطع من المهاجرين من بلاد ماوراء النهر الى خراسان ، والبداءة الغز كغيرهم من بني جلدتهم من البداءة كان ما يهتمهم دائماً هو تأمين المراعي والقيام بالسلب والنهب ، ومن الصعب السيطرة على البدوي ووضعه تحت سيطرة سلطة مركزية، أو ضمن أنظمة محددة معينة، وكان طغرل بك بعد معركة دندانقان بصدد إقامة امبراطورية سنوية ذات سمعة طيبة فيها أمن ونظام وكان من المحال والحالة هذه أن يترك بداته ينهبون، ولكن بداته كانوا أقوى منه ، لهذا وجد طغرل بك أن أفضل الحلول للتخلص من بداته هو توجيههم نحو فتوح خارجية في بلدان غير اسلامية أو بلدان لاتدين بالاسلام السنني، ولقد كانت أرمينية وبيزنطة البلد الكافر، وكانت الجزيرة والشام البلد الذي لا يدين بالسننة، والتوجه نحو الفتوح الخارجية لم يخلص فقط طغرل بك من مشاكل البداءة ، واشتباع رغبات هؤلاء في السلب والنهب والحصول على الغنائم، بل كان توجيههم بالنسبة لطغرل بك عملاً في سبيل مد رقعة دار الاسلام ، وكانت اعمالهم جهادا في سبيل الله لذا كان كل واحد من التركمان يطلق على نفسه لقب « غازي »!

يروى سبط ابن الجوزي وغيره من المؤرخين أنه في سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م « قصد الغز نيسابور ، فقال لهم ابراهيم ينال: هذه البلاد خربت وما تحملكم، اطلبوا بلاد الروم فهي أحمل لكم ، فساروا الى الروم ... فاوغلوا في بلاد الروم فقتلوا وأسروا ونهبوا أشياء كثيرة ، وعادوا الى اطراف ارمينية وقيل انهم بلغوا الى خليج القسطنطينية ، وكان معهم محمد بن ابراهيم ينال، فغزم ابن ينال وحده مائة ألف رأس ، وأخذوا من السلاح والمال ما حملوا على عشرة الاف عجلة ، وقيل بل كان ابراهيم ينال بنفسه معهم » (٥٧) -

في هذه السننة تعرضت أراضي الجزيرة لأول مرة لغارات التركمان واصطدمت دولها بهم ، وإنه لمن الضروري قبل القيام بدراسة ذلك ان نتعرف أولاً على الوضع السياسي والديني والاجتماعي الذي

كان سائدا آنذاك في الجزيرة والشام ، وبذفس الوقت نتعرف الى  
أوضاع بغداد والخلافة العباسية في هذه الأونة التي كان طغرلبيك  
يجهد نفسه للسيطرة عليها ، وهذا سيكون موضوع الفصل التالي.

